

جامعة وهران 1
كلية الأدب و اللغات و الفنون

أطروحة

لـنيل شهادة الدكتوراه
في الأدب العربي و اللغات و الفنون

مشروع بعنوان:

الأنا و الآخر في فكر مالك بن نبي

من إعداد الطالبة : عياشي عائشة

أعضاء لجنة المناقشة :

اسم و لقب الاستاذ	الرتبة	الصفة	مؤسسة الانتماء
بوقربة الشيخ	أستاذ	رئيسا	جامعة وهران 1
مسعود أحمد	أستاذ	مشرفا و مقرر	جامعة وهران 1
بوعزة عبد القادر	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة وهران 1
بلوحي محمد	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة سيدي بلعباس
بن الناصر حنيفي	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة مستعالم
عميش العربي	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة الشلف

الموسم الجامعي 2017/2018

المقدمة

إنّ العلاقات التاريخية التي ربطت المسلمين بغيرهم من الأمم، خلفت حتماً آثاراً عميقة ومميزات ذاتية تراوحت بين التشابه والاختلاف، بين الاتفاق والتضاد على جميع نواحي الحياة، فتبلور مفهوم "الأنا" و "الآخر" كمعطى ثقافي واجتماعي، توضحت من خلاله حدود هوية كلا الطرفين بل أهدافه ومساعيه.

بحث الكثير من الفلاسفة والمؤرخين في موضوع "الأنا" و "الآخر" من كلّ الجوانب، كلّ من زاويته الخاصة، من بينهم المفكر الجزائري مالك بن نبي صاحب الرؤية الاستشرافية المستقبلية التي أكسبت فكره ونظرياته في الحضارة صفة "العالمية"، فهو لم يبحث في مشكل علاقة "الأنا" و "الآخر" فحسب، بل بشر بالحلول و أسس لمشاريع النهضة والإقلاع الحضاري.

عُرف عن مالك بن نبي عمق انتمائه لدينه ووطنه وجذوره رغم قضائه شطراً هاماً من حياته في فرنسا ليُصنّف ضمن قائمة المثقفين الذين لم ينبهروا بالحضارة الغربية كما لم يقاطعوها، فهو يعترف بالإنجازات العلمية والتقنية للغرب، غير أنّه يرى أنّ الحضارة الإسلامية، رغم حالة العطل التي يعيشها المسلمون، هي حتماً البديل لحضارة بدأت -حسب رأيه- في التآكل والاندثار.

اهتمّ بن نبي بـ "فقه" الحضارة وتعمّق في أسباب قيامها وظروف انهيارها، ولم يكن ما توصّل إليه مجرد بحث أكاديمي أو نظرية جديدة تُضاف إلى كم النظريات الباحثة في نشوء الحضارات واندثارها، بل لقد حاول جاداً أن يكون بحثه في هذا المجال، خطة طريق، و وصفة عملية لقيام المجتمع الإسلامي ودخوله في دورة حضارية جديدة بعد أن عاش قروناً طويلة في ظل التخلف والجهل.

لكن ما موقع "الآخر" من هذه الخطة؟

وهل له يد في إعاقه "الأنا" عن إقامة حضارته؟

بل ماذا عن حضارة "الآخر" وهل هي حقاً تقترب من آخر مراحلها رغم كلّ هذا التطور التكنولوجي الرهيب؟

والوصول إلى الإجابة كان أصل كتابة هذا البحث، لفك طلاسم نظرة الاتهام التي لا تنفك تتصاعد نحو المجتمع الإسلامي فلقد نُعتت بداية بالتخلف والجهل وحبّ الملذات ثم بالتطرف والتعصب والإرهاب وهو في الحالتين مجتمع ثانٍ يأتي في

الدرك الأسفل للحضارة، رغم كل الثروات الطبيعية التي تزخر بها أراضيه. لهذا كان لا بد من مساءلة مالك بن نبي للوقوف على حقيقة هذه الاتهامات والتعرف على خلفيتها النفسية والتاريخية والتكهن بمستقبل المجتمع المسلم وهل بإمكان هذه الاتهامات أن تتحوّل إلى واقع وحقيقة لينهار العالم الإسلامي و تذهب ربحه أم أنّها ستكون حافزاً للبناء وتعزيز الثقة في الذات.

تكمّن مصداقية فكر مالك بن نبي في أنّه وسطي معتدل، مفكر حيادي فلا هو بالمتعصب لعرقه مدارٍ لأخطائه وعثراته، ولا هو بالمغرم بالغرب السابح في ملكوته، كما أنّ اعتماده على أسلوب النظريات العلمية في التحليل منحت أبحاثه القابلية للتحقيق، كيف لا وتباشير صحتها تظهر في آفاق بعض الدول التي تبنت فكره كأندونيسيا وماليزيا.

وعلى ضوء ما سبق تشابكت جملة من الدوافع للكتابة في هذا الموضوع أهمها:

- تجدد الصراع بين "الأنا" و "الآخر" وانحرافه نحو منحرج العنصرية الكريهة خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حيث أضحى العداء نحو المسلمين معلناً والحرب مكشوفة، فهم بكل أطيافهم، المتشدّد منهم والمنفتح عنصر تهديد لحضارة الآخر وأداة هدم لأركانها.

ولم نجد أحسن من مواقف مالك بن نبي وآرائه لتفنيد هذه الادعاءات وإبطالها وتقويم اعوجاجها وتوضيح اللبس منها، لرد الاعتبار للذات العربية والإسلامية ومنح المسلمين الأمل، وبث الثقة في نفوس الأجيال اللاحقة، لتدرك أنّ الشعوب وحدها من تستطيع بناء حضارة إن آمنت بذلك وأحسنّت استغلال الثروات والأدوات المادية المتوفرة لديها، ووقفت موقف النّدية من الآخر ولما لا التفوق عليه.

- الاحتفاء بفكر مالك بن نبي ودعم الرأي القائل بصلاحية نظرياته الفكرية من أجل إقامة حضارة جديدة على خطى رؤيته الاستشرافية التي اتخذت من الإنسان وشروط نهضته محور دراسة وبحث.

- توسيع دائرة قراء مالك بن نبي وكسر قاعدة أنّ فهم أفكاره حكر على النّخبة الإسلامية والعربية من خلال التّعرض بالبحث إلى بعض الجوانب الجزئية في فكره وتحليلها بأسلوب أبسط.

المقدمة

أما عن إشكالية البحث فهي محاولة للإجابة عن بعض التساؤلات التي تمحورت حول فلسفة مالك بن نبي من إشكالية "الأنا" و "الآخر": هل آمن بن نبي حقاً بإمكانات "الأنا" وقدراتها على التغيير وهو يؤسس لتجربة نهضوية من خلال مؤلفاته (ميلاد مجتمع، شروط النهضة، المسلم في عالم الاقتصاد، من أجل التغيير، فكرة كمنولث إسلامي، دور المسلم ورسالته و...) في ظل هذا الهوان السياسي والاقتصادي؟

كيف نزواج بين الحرقلة التي نلمسها في كتابات بن نبي وتألمه لمصير أمته وما تعيشه الشعوب الإسلامية من ويلات التجهيل ونهب الثروات، جرّاء الاستعمار الأجنبي، بل ما شعر به هو شخصياً من ظيم واستبداد المستعمر، وبين هذا "اللين" في التعامل مع الآخر؟.

كثيرة هي الدراسات حول فكر مالك بن نبي، لكنّها في أغلبها تناولت إمّا حياته الشخصية أو البعد الحضاري العام في فكره، ممّا صعب نوعاً ما البحث في جانب جزئي من آرائه ومواقفه لقلّة المراجع والمؤلفات.

ومن الدراسات التي حفّزتني على خوض غمار هذا الموضوع، كتابات مالك بن نبي نفسه فقد فاجأني طرحه الدقيق لقضايا الأمة ومشاكلها المصيرية، واقتراحه الحل في أسلوب ذكي ومباشر تلمس من خلاله أنّ الرجل مدرك حق الإدراك لدقة أسباب انهيار الحضارة الإسلامية وكذا امكانية قيامها من جديد.

- وكذا مؤلف "عمر مسقاوي" رفيق درب المفكر والوحي الشرعي على تراثه المكتوب باللغة العربية، الموسوب بـ "في صحبة مالك بن نبي" حيث تحدث بإسهاب عن جوانب شخصية من حياة بن نبي وناقش بعضاً من إنتاجه الفكري.

- كتاب الدكتور فوزية بريون "مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة" و الذي يعد في الأصل أطروحة جامعية مكّلة لمتطلبات درجة الدكتوراه من جامعة متشجن بأمريكا، تطرقت من خلاله الباحثة إلى رصد أهم نظرياته الفكرية، بالإضافة إلى عرض وافٍ لحياته الشخصية.

أمّا عن المنهج المتّبع في البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على سبر أغوار ظاهرة بعينها والتّعرف على حقيقتها، أسبابها، خصائصها، والنتائج

المقدمة

المرتبة عنها في أرض الواقع، كتتبع ثنائية "الأنا" و "الآخر" في حياة وكتابات مالك بن نبي وتحديد أبعادها من خلال آرائه ومواقفه من قضايا وظواهر عالمية والتي صاغها بسلسلة موظفا الفلسفة، السياسة وعلم الاجتماع و...، في توليفة عجيبة لا تكاد تبين فيها- حدود علم وبداية آخر.

يحتوي البحث على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

الهدف من البحث: وتضمنت إشكالية وأهمية البحث ودوافع اختياره والمنهج الذي أتبع في معالجة نصوصه.

الهدف من البحث: حيث تمّ التطرّق إلى ماهية "الأنا" و "الآخر" من خلال طرح سؤال من هو الأنا؟ ومن هو الآخر؟ وكيف يقيمان بعضهما البعض؟.

وبعد الوقوف عند بعض المحطات الهامة في حياة بن نبي تبينت ملامح "الأنا" عنده، كما لم يكن صعباً تشكيل رؤية عن "الآخر" والتّعرف على أهم مقوماته الثقافية والاجتماعية نتيجة التعامل و الاحتكاك المباشر به.

الهدف من البحث: تمحور حول مواقف و آراء توصّل إليها المفكر مالك بن نبي بعد طول بحث وتجارب عديدة، لتصبح نظريات فكرية يُستشهد بها، غير أنّنا نستشعر بين سطورها هذا الحضور الضمني لصراع "الأنا" و "الآخر"، وكيف يرخص لمجتمع في أوجّ قوته بتغيير القوانين واستحداث مبادئ جديدة للتعامل مع من هم أدنى منه قوة وتطوراً- لا تخدم سوى طموحه ومخططاته، كتحليله مالك بن نبي- لظاهرة الاستعمار، الذي عايشه مالك منذ نعومة أظفاره، فتشكّلت لديه خلفية ثرة عن مفهوم الاستعمار، مبادئه، أساليبه وأهدافه، ليتفرّد بنظرية "القابلية للاستعمار" عند الشعوب الضعيفة المتخلفة، وينوّه إلى أنّ الاستعمارين الثقافي والاقتصادي مازالا يجثمان بثقلهما على صدر الأمة العربية الإسلامية إلى يومنا هذا.

ومن المحطات الفكرية التي توقف عندها المفكر مالك بن نبي وناقشها ضمن مؤلفاته تصديه للفكر الاستشراقي حين حاول رواه تزييف الحقائق ومحاربة

المقدمة

الإسلام، فعمد بن نبي إلى الأحداث التاريخية ليثبت سماحة هذا الدين وعدالة الفتوحات الإسلامية.

كما لم يتوان بن نبي- في عرض موقفه من أهم المفاهيم السياسية الغربية كمفهوم "الديمقراطية"، حيث بحث في جذوره اليونانية وتطوراتها الحديثة، ليستخلص أبعاد هذا المفهوم ومدى تماشيه مع واقع ومبادئ العالم الإسلامي.

ولم يفته تناول قضية الثقافة التي استقطبت اهتمامه كهوية مجتمع لها دور أساسي وفعال في تنشئة الإنسان، صانع الحضارة.

طلب من الباحث: كان بمثابة إطلالة استشرافية، ورؤية مستقبلية لمقومات الاقلاع الحضاري في فكر بن نبي.

طلب من الباحث: وضمت ملخص البحث وعرض أهم الاستنتاجات.

حين نقف عند ظاهرة عزوف الشباب عن قراءة فكر مالك بن نبي تتجاذبنا

بضع أسئلة محيرة؛ أين وكيف نصنف مالك بن نبي؟

هل هو أسطورة في فقه الحضارة؟

هل هو سابق لعصره؟ أم أنه مجرد مفكر حالم بقيت أفكاره سجينة كتبه وإلاّ

لما لم يفلح مالك في تنشئة وتكوين تلاميذ يحملون فكره و يورثوه؟

لماذا هُمش في وطنه وأضحى فكره "مغترباً" في دياره؟

هل لأنّ أفكاره كانت مستعصية الفهم عميقة، فعزل وأقصي؟ أم أنّا

مضطرون إلى الخضوع لفكرة "المؤامرة" و الخصوم الذين لم يستسيغوا فكره

ومنهجه؟.

قبل الإجابة عن أيّ من هذه الأسئلة، وجب التعرف أولاً عن من هو مالك

بن نبي؟.

ولد مالك بن نبي ابن الحاج ساعد عمار ابن الخدير بن مصطفى وابن

الحاجة زهيرة بن عيسى في فاتح جانفي 1905م، التحق في صباه بالكتاب، ثم

انتظم بالمدرسة الفرنسية، فتحصّل على الشهادة الابتدائية بدرجة جيد، ثم تخرّج

من المدرسة الإكمالية سنة 1925م. سافر إلى فرنسا للبحث عن العمل، لكنه عاد

أدراجه إلى الجزائر بعد أن فشل مسعاه، فتحصّل على وظيفة بمحكمة تبسة ثم

بأفلو عام 1927، ليلتقي لأول مرة بابن باديس ويحادثه سنة 1928م.¹

¹ - أنظر مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن (الطفل و الطالب)، دار الفكر، بيروت 1970، ص 284.

سافر مالك بن نبي إلى فرنسا حيث قرر الالتحاق بمعهد اللغات الشرقية لكنه لم ينجح، كما نصحه مدير المعهد ألا يحاول الترشح للامتحان مرة أخرى فأيقن أن الالتحاق بالمعهد لا يخضع بالنسبة لجزائري مسلم لمقاييس فكرية، بل لمقاييس سياسية¹ فاضطر إلى الالتحاق بمدرسة اللاسلكي للتخرج كمساعد مهندس كهربائي، فما لبث أن وجد متعة وتحفيزاً لاكتشاف قوة العلم التقني.

في سنة 1931 تزوج من فتاة فرنسية تدعى "سيلستين بول فيليبون" أقنعها بالدين الإسلامي وصار يدعوها "خديجة" وعبر في كتاباته عن تقديره لها كزوجة مدبرة، حاذقة ومتفقة ذات ذوق جمالي رفيع، وكان زواجه منها من أهم الأسباب التي دعت به إلى استيعاب الثقافة الفرنسية، والتعرف عن قرب عن آثار الحضارة الغربية.

وبعد أن ساء وضعه في فرنسا، طلب اللجوء السياسي بمصر، وقد تعرّض على زوجته اللاحق به لإصابته بروماتيزم الأطراف، فبقيت بفرنسا ولم تنقطع علاقتها بمالك حتى بعد زواجه من أخرى سنة 1961م و إنجاب ثلاث بنات (التوأم نعمة وإيمان و رحمة).²

عاد مالك إلى الجزائر بعد استقلالها سنة 1963م، فعُين مديراً عاماً للتعليم العالي سنة 1964م، فنشر مقالات عديدة في صحف مثل الثورة الإفريقية

¹ - نفس المصدر: ص 27.

² - أنظر: عبد الناصر بن عيسى: ألا يستحق رجل مثل هذا العملاق التفاته حقيقية، جريدة الشروق اليومي، عدد 5 مارس 2013.

و المجاهد. ثم استقال منه ليتفرغ للعمل الفكري الاسلامي، فاتحاً بيته لعقد لقاءات فكرية روادها طلاب الجامعات ومتقنون من مهندسين و أطباء وصحافيين.

سافر مالك رفقة زوجته وبناته سنة 1971 لأداء مناسك الحج، فأمضى في هذه الرحلة نحو سبعة شهور تنقل خلالها بين مصر وسورية ولبنان وليبيا وتونس حيث التقى بلفيف من المثقفين و المفكرين كما سجّل أثناء تواجده بلبنان وصية رسمية في محكمة طرابلس منح فيها المحامي "عمر مسقاوي" حق الإشراف على طبع مؤلفاته والحفاظ على حقوقه الفكرية بعد وفاته.

أصيب بن نبي بسرطان في المخ وأجريت له عملية بفرنسا وعندما عاد إلى بلاده عاوده المرض فتوفي في منزله يوم 13 أكتوبر عام 1973م.

انقسمت الآراء حول مالك بن نبي، بين مؤيد مقدس لأفكاره وبين مشكك فيها منتقد لها. فهناك من يحسبه ظاهرة ثقافية، ويظنه ابن خلدون الثاني بامتياز فهو وإن لم يكن مقلداً له، فلقد أحيا المدرسة الخلدونية؛ رؤية ومنظوراً وموضوعاً ومنهجاً؛ رؤية تتشغل بال عمران في ضوء القرآن فتكشف سنن وأسباب قيامه وانهيائه.

ومنظوراً يحاول أن يعالج القضايا في أفقها الحضاري العالمي؛ وموضوعاً وهو حركة المجتمع في التاريخ والعلاقات الاجتماعية والصلة القائمة بين الانسان والدين والقيم وكيفية تركيب ذلك في فعل انجازي تاريخي مستحضراً سنن الله في ذلك؛ ومنهجاً من خلال تعميق الفكر التحليلي والتركيب، واكتشاف سنن الله في

حركة التاريخ والاجتماع ليغدوا الفعل الحضاري فعلا واعيا، قصديا منظماً

ومخططاً له.¹

ومن المزايا التي يتفق عليها مؤيدو ومعارضو مالك وتُحسب له في فترة

الضعف والانبهار بحضارة الغرب أنه « بنى طريقاً ثالثاً للعلاقة بالغرب؛ ليس

طريق المقاطعة ولا طريق الذوبان في الغرب وإنما طريقاً يضمن علاقة سليمة مع

هذه الحضارة التي تشع على العالم، نستفيد منها ونعمل على الخروج من طوقها

بل وتطعيمها بالعناصر الاسلامية، في مستوى التّصور والقيم و البعد الروحي

الذي يحفظ على الانسانية إنسانيتها «²لأنّ صاحب نظرية "القابلية للاستعمار" يرى

أنّ الذات الاسلامية وحدها من تتحمّل أعباء تخلفها وضعفها، فاتخذ له بذلك

منهجاً فكرياً ميّزه عن غيره من المفكرين الذين عالجوا علاقة المستعمر

بالمستعمر، أو علاقة "الأنا" "بالآخر" التي يعتبرها مالك معياراً حساساً يقيس من

خلاله درجة تقدمه أو تخلفه مقارنة بالآخر، لهذا يُجمع مؤيدوه أنّه صاحب رؤية

حضارية ثقافية، اهتدى بفطرته السليمة وبصيرته النافذة إلى قيم الإسلام وإدراك

مقاصده، كما أنّه صاحب منهج، وعطاؤه الثقافي لازمة للعقل المسلم وللعمل

الإسلامي، وبدونه ستستمر الإعاقة والعجز والخزي المعرفي.³

غير أنّ ثلّة أخرى من المفكرين ترى أن مالكا قد فشل في التواصل مع

جيل عصره و الأجيال اللاحقة، فهو يعيش غربة ثقافية فلا فكره قُبِلَ في مشروع

¹ - أنظر: بدران مسعود، فكر مالك بن نبي لم يبدأ الغطاء الفعلي بعد <https://islamoline.net>

² - بدران مسعود: فكر مالك بن نبي لم يبدأ الغطاء الفعلي بعد.

³ - أنظر: عبد الوهاب بوخلخال: قراءة في فكر مالك بن نبي كتاب الأمة، قطر، العدد 152، ذو القعدة 1433هـ، ص 30.

الحركة الإصلاحية أو الصحوة الإسلامية، واندماج فيها وعرف طريقه إلى الدراسة والتقييم والتطبيق والاستثمار، ولا هو قُبِلَ من طرف المشروع الحداثي واندماج فيه وعرف طريقه إلى الدراسة والتقييم والتطبيق والاستثمار، بل ظلّ معلقاً بينهما ومُعرضاً عنه من الطرفين وأحياناً كثيرة مرفوضاً من قبلهما ومحارباً لأنّ عناصر من حركة الإصلاح والصحوة تعتبره ذو توجه حداثي علماني وعناصر من الحركات الحداثيّة تعتبره أصولياً سلفياً فتاهت أفكاره وضاع مشروعه التجديدي.¹

ومن الأسباب الأخرى التي وقفت دون الاستفادة من فكر مالك بن نبي وساهمت في عزوف الشباب عن قراءته أن الحركات الإسلامية عموماً تتبنّى الفكر النضالي وتؤمن بمبدأ الطاعة والإتباع «في حين أنّ فكر مالك بن نبي فكر منفتح ليس لجماعة أو شعب أو دولة، وإنّما فكر يمكن أن يتبناه كائن من كان وهدفه صياغة منظور أكثر علمية وأكثر شمولية لتشخيص أمراض الأمة و وصف حلول لها».²

لهذا لم ينجح مالك في كسب عاطفة الشباب لجديته وطرحه العلمي الذي يخاطب العقول فلم يتمكن من تعبئة "جماعة" تتبنّى فكره وتدعو إليه، ضف إلى ذلك كتابته لمؤلفاته باللغة الفرنسية - قبل سفره إلى القاهرة- فصنّف فكره، قبل أن

يُقرأ ضمن المفكرين المستعربين وخاصة في المشرق العربي، منبت الحركات

الإسلامية، ومن ذلك علاقته بحركة الإخوان المسلمين * وإن كان قد سجّل «رضاً

¹ - الطيب برغوث: الطريق إلى عام مالك بن نبي الفكري www.echouroukonline.com

² - بدران مسعود: فكر مالك بن نبي لم يبدأ العطاء الفعلي بعد.

* منظمة سياسية دينية، تأسست على يد حسن البنا بالاسماعيلية سنة 1928، لينتقل مقرها إلى القاهرة سنة 1933 فتحوّلت من العمل التريوي إلى السياسي، فكثرت أتباعها، وانتشر فكرها عبر البلاد العربية.

كبيراً على هذه الحركة، يظهر ذلك في إشارات بهما لأخذها بمبدأ الفعالية الذي تتحول فيه الكلمات إلى أفعال عملية، والذي لا يصدر فيه الفعل إلا وقد رُسمت له خطة لتطبيقه. «¹كما أعجب برائدها أيما إعجاب، إلا أنّ موقفه من الرئيس المصري جمال عبد الناصر وتأثيره له خاصة بعد مؤتمر باندونغ، خلف علاقة غير ودية بين مالك و جماعة الإخوان، ضف إلى ذلك خلافه مع " السيد قطب" ²الذي أعلن عن صدور كتاب له بعنوان " نحو مجتمع إسلامي متحضر " غير أنّه حذف صفة (متحضر) وأصدر الكتاب بعنوان " نحو مجتمع إسلامي" بحجة أن المجتمع الإسلامي هو في الأصل المجتمع المتحضر، فأبدى بن نبي إعجابه بالعنوان الأول، لكنه لم يرحب بذلك الحذف بل رآه تشويهاً للحقيقة. وعقب أنّ المجتمع المسلم كغيره من المجتمعات إذا ابتعد عن مصدر قوته -الروح عند مالك بن نبي- خرج من دائرة الحضارة، وأصبح مجبراً على الدخول في دورة حضارية جديدة.

ولقد رد سيد قطب في كتابه "معالم في الطريق" على موقف مالك بن نبي مشيراً إليه بوصفه "المؤلف الجزائري الذي يكتب بالفرنسية" مدافعاً عن موقف حذف (متحضر) من عنوان كتابه، وذلك تجنباً للتكرار، مؤكداً أنّ المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر الوحيد.³

¹ - بوراس يوسف: الفكر السياسي عند مالك بن نبي، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2013، ص 181.
² - سيد قطب (1906-1966): كاتب وأديب ومفكر إسلامي من جماعة الإخوان المسلمين. تخرج من دار العلوم سنة 1933، عمل بوزارة المعارف، ثم سافر إلى أمريكا وعاد منها سنة 1950. سجن في محنة الإخوان الأولى 1954 لمدة 10 سنوات، أطلق سراحه عام 1964 ثم قبض عليه ليحكم عليه بالإعدام سنة 1966.
³ - أنظر: سيد قطب: معالم في الطريق، دار الشروق، مصر، 1973، ص 117.

ويبقى مالك بن نبي إنساناً يخطئ ويصيب يؤخذ من كلامه ويُرد لأنَّ

« المشكلة في قراءة الرواد وحركات الإصلاح أننا نأخذ من كلاهما ولا نرد، ظنا

منّا أن ذلك ينقص من قدرهم ويبخس عطاءهم».¹

ورغم معارضي مالك بن نبي، يبقى فكره مدرسة أسس لها من خلال رؤية

دقيقة لأسباب التخلف، وعوامل الاقلاع الحضاري على السواء، ليرسم بذلك طريقا

لأمتة من أجل استعادة دورها الريادي ورسالتها في التحضر.

ومن أجل ذلك بدأت الحياة تدب من جديد في نظريات مالك الحضارية

فبعد التهميش و التغييب والإقصاء أخذت أفكاره تحتل موقعها الحيوي في الساحة

الثقافية الإسلامية المعاصرة، وتعرف طريقها تدريجيا إلى الأجيال الجديدة في

العالم الإسلامي، التي أبدت تجاوبا معها، وازدادت وعياً بأهميتها الإستراتيجية

وتحمست لتبنيها ومراجعتها وتطويرها بل محاولة تجاوزها والانتفاع بها في تأصيل

الوعي الرسالي وتحسين أداء حركة البناء الحضاري ² بدل البحث في صيدلية

الحضارة الغربية -حسب تعبير بن نبي- عن حبة هنا وعقار هناك، علّه يجد

الشفاء.

¹ - عبد الوهاب بوخلخال: قراءة في فكر مالك بن نبي، ص 29.

² - www.echouroukonline.com

1 إشكالية الأنا و الآخر

أ. الآخر في الفكر الغربي

ب. نظرة " الأنا " إلى الآخر في الفكر الإسلامي

ج. الآخر في حياة بن نبي.

2 مالك بن نبي، جدلية حوار الحضارات و التعايش السلمي بين الأمم.

1 إشكالية " الأنا " و " الآخر "

" الأنا " و " الآخر " جزء معقد من تشكيلة اجتماعية، دينية وثقافية واحدة

لا يمكن الفصل بينهما.

تقوم العلاقة بين " الأنا " و " الآخر " على التضاد و ثنائية الأشياء مثل

الخير والشر والعدل والظلم، والصواب و الخطأ، وغيرها من الثنائيات الضدية

التي تحكم غالبا على أن الذات أو الأنا هي الأصل والصواب و أن الآخر هو

الأسوأ و الهامشي ولكن كيف نحدّد ملامح هذه "الأنا"؟ وكيف نميّز علاقتها

بالآخر؟

إجمالا هناك من المفكرين من يرى أن "الأنا" هي كلّ ما تشتمل عليه هذه الذات من

خصائص وسمات نفسية عقلية أو مزاجية دفاعية، من أفكار وطموحات وصراعات، أو

توترات، وحاجات فيزيولوجية، وحاجات نفسية كالحاجة للحب و الانتماء أو الأمن وتحقيق

الذات و غيرها من الحاجات والدوافع.

نقرأ في معجم "لاند" الفلسفي في معنى " الأنا " " Le Moi " ما يلي:

« وعي فردي، بوصفه منشغلا بمصالحه ومنحازا لذاته » ونجد كذلك « الميل إلى

إرجاع كل شيء إلى الذات » ويستشهد "لاند" بعبارة للفيلسوف واللاهوتي، العالم

الفرنسي "بليز باسكال"، يقول فيها: «لأنا خاصيتان، فمن جهة هو في ذاته غير

عادل من حيث إنّه يجعل من نفسه مركزاً لكل شيء، وهو من جهة أخرى

مضايق للآخرين من حيث أنه يريد استعبادهم، ذلك لأنّ كل "أنا" هو عدو، ويريد

أن يكون المسيطر على الكل¹. كما يعرف "يونج" الذات "أو" الأنا" في صورة

أخاذا فيقول: « الأنا هو جزيرة صغيرة في مجال غير محدود يمثل اللاشعور»²

أما في عرف علماء النفس فإن المقصود بـ "الأنا" هي القيم المعيارية

المتعالية على الزمان والمكان، فهي الشخصية التي نعرفها في أنفسنا، صاحبة

الميل و العواطف، وهي منطقية، ومتصلة بعالم الواقع اتصالا مباشرا، ولها نزوع

أخلاقي يحافظ على القيم ويرعى التقاليد، ويتكون "الأنا" في بدايته عن طريق

الدوافع أو الطاقة الغريزية، إذ يحاول الطفل أن يحققها عن طريق تفاعله واتصاله

بالعالم الخارجي بما فيه من قوى ومقاومات، أشياء ساكنة وأخرى متحركة، فيؤدي

التفاعل مع كل هذه الأمور إلى تكوين النفس الشعورية "الأنا".³

أما من منظور علماء الاجتماع، فإن "الأنا" مهمشة إن لم تكن ملغاة، لما

توحي به أبعادها من معاني الأنانية و التملك، فحياة الناس وعملهم ضمن جماعة

يلغي - حسب فكرهم - "الأنا" أو يستثنى أحيانا، لإحداث التوازن و الانسجام

وتحقيق التكامل الاجتماعي، لأنه ينذر أن تظل "الأنا" مستقلة لفترة طويلة إلا

ضمن ظروف خاصة جداً؛ فالإنسان اجتماعي بطبعه حسب تعبير أرسطو.

افترض H.shulte شولته وجود حالة أسماها "حالة نحن" لدى الشخص

في المواقف التي يحقق فيها التكامل الاجتماعي، فهو حين يتحدث عن اتجاهه

نحو الهدف المشترك أو العقيدة المشتركة لا يقول "أنا" بل يقول "نحن"، فيتحوّل

الموقف من "أنا و الآخرين" إلى "نحن".

¹ معنى " الأنا" حسب لالاند : ملتي بن خلدون للعلوم و الفلسفة و الأدب Ebn.Khaldoun@Yahoo.Fr.

² مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر ، دمشق ، 1984 ، ط4 ، ص 20 .

³ أنظر: عبد العزيز القوصي: أسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952، ط4 ، ص 106، 105.

لكن قد يحدث صدع في هذه "النحن" حين ينجم خلاف عميق بين أفراد الجماعة المتكاملة، عندئذ يتحول الموقف إلى "أنا و الآخرين".¹

ويستدرجنا هذا إلى المفهوم القرآني الذي يرفض وجود "أنا" متفردة، مستقلة « والاستقلالية النسبية التي يحوزها الشخص لا تُكتسب دلالتها الفعلية إلا ضمن علاقات تداوتية، أي داخل "أنا جماعية" تحتضن الذات المختلفة، في تجلياتها المتشخصة، في توازن بين الخاص و العام وبين الذات والآخر، فالإقرار بالأنا أو بالذات هو تأكيد على وجود الآخرين «² الذين يُفترض فيهم الاختلاف في الدين والمعتقد، وهو المعيار الوحيد الذي يحتكم إليه القرآن ليفصل ما بين حدود "الأنا الجماعية" المسلم والآخر ذو الدين المختلف. وهكذا « تبدو "الأنا" الفردية أو الجماعية، من خلال الشخصية وتتبلور من خلال الواقع المحيط بها، فيؤثر فيها و يكون له أبلغ الأثر في تكوين الذات أو الشخصية بكل ما تحمله من خصائص سيكولوجية أو اجتماعية».³

إذن "فالآخر" هو صفة لكل ما هو غير "أنا" حسب المثل العربي القائل: "بضدها تتميز الأشياء"، والآخر مصطلح يحمل في ثناياه معاني الاختلاف والتغاير و التفاوت. وإذا ما حاولنا أن نعرف من هو "الآخر" وجب علينا إدراك كنه التلازم بين مفهوم "صورة الذات" ومفهوم "صورة الآخر". لأن استخدام أي واحد

¹ - انظر: مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، القاهرة ، 1981 ، ط4 ، ص 123/122.

² - محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل: صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص53.

³ - عمرو عبد العلي علام: الأنا و الآخر الشخصية العربية و الشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار العلوم للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط1، يناير 2005، ص10.

منهما يستدعي تلقائياً حضور "الآخر"، ولا يتم معرفة "الذات" إلا عبر ذلك
 "الآخر" لأنه قد يكون فرداً واحداً وقد يكون جماعة أو أمة، قد يكون قريباً وقد
 يكون بعيداً وقد يكون صديقاً، وقد يكون عدواً لهذا وجب التفكير في "أنسب
 و أنجع الأساليب للتعامل معه.

وغالباً عندما يكون "الآخر" هو العدو، تسعى "الأنا" إلى تشويبه ونعته
 بصفات منتقاة، إذ ينظر "الأنا" -في هذه الحالة- إلى نفسه على أنه متفوق على
 "الآخر" في جميع المستويات.

أ . الآخر في الفكر الغربي:

من هو الآخر في الفكر الغربي؟ ماهي مميزاته و مواقفه ؟

Samuel ¹

يرجح الكثير من المؤرخين وعلى رأسهم "صموئيل هنتجتون"

Philps Huntington في كتابه "صدام الحضارات" أنّ الصراع في المستقبل
 سيكون بين الحضارات، وعلى الأخص بين الغرب والحضارات الراضة لقيمه
 وسيطرته، وعلى رأسها الحضارة العربية الإسلامية.

لقد تلقى الغرب الحديث فكرة التفوق العرقي العنصري من تراثه التاريخي

ومن منبعية الرئيسيين اليونان والرومان، فهي هو أرسطو يؤكد «أن الآلهة قد

خلقت اليونانيين من مادة نورانية خاصة، بينما خلقت غيرهم من مواد خسيصة

لذلك فقد اعتبر بأن غير اليوناني يعاني القصور العقلي أو العضلي على خلاف

¹ - صموئيل هانتجتون (1927-2008) عالما سياسيا أمريكيا، بروفيسور في جامعة هارفورد.

اليوناني الذي يتمتع بالكمال في الجانبين، ناهيك عن مناخ وجغرافية اليونان بموقعها الممتاز الذي يساعد على الإبداع في مختلف العلوم و الفنون».¹

كما نجد "هيجل" المشبع بفكرة " الأنا الأوروبي " يعتبر « كل ما هو خارج أوروبا إمّا دوني متخلف وإمّا يقصى من التاريخ، لا شيء سوى لأنّ "الأنا" الأوروبي يجهله»².

ومع عصر النهضة، سادت رؤية غريبة تقوم على ثنائية " أنا" الغربي المتحضر، مقابل "الآخر" غير الغربي المتوحش فتشظّت القيم الإنسانية وتولّدت علاقة عدا و انعدام دفء بين الذات الغربية وغيرها من الذوات الأخرى. واستمرّ الأمر كذلك، حتّى مع بزوغ نجم التيارات الفكرية الحديثة (الليبرالية الماركسية...) وإن كانت قد اختلفت في مناهجها إلّا أنّ نظرتها للشعوب غير الغربية ظلّت ثابتة، رغم وجود فئة من المثقفين غير الغربيين التي حاولت جاهدة تقليد الغربي و التواصل مع رؤيته للذوبان ضمن "أناه" دون أن تكتشف أنّ "الآخر الغربي" يرفض الاعتراف إلّا بذاته.

تعدّدت دوافع العدا و الغربي للإسلام، كما تعدّدت طرق البحث عن حجج لإثارة الخلاف و الصاق تهمة الإرهاب بالمسلمين و وضعهم في مستوى العدوّ وترسيخ الصورة النمطية المسيئة للإسلام التي يروج لها الإعلام الغربي و ما هي في حقيقتها إلّا ميراثا قديما رسم معالمه الأولى اللاهوتيون المسيحيون المتعصبون خلال القرون الممتدة من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر ميلادي، وأكمل

¹ عبد الله بوقرن: الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل -رسالة ماجستير- جامعة منتوري، قسنطينة، كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية و الانسانية، 2006، 2007، ص18.

² نفس المصدر ، ص 341.

تلوينها المستشرقون و المنصرون من خلال دراساتهم و أبحاثهم عن أرض العرب وساكنيها.

ومازالت إلى الآن الصورة الأكثر أهمية في مراكز البحث ومن خلال التحليل التاريخي للعلاقة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي يمكن تحديد أربعة مراحل متعاقبة متداخلة في نفس الوقت، وتتميز كل مرحلة بطبيعة صورتها و بالأساليب التي صيغت بها و الوسائل التي سخرت لنشرها والترويج لها، وهذه المراحل هي:

1. مرحلة القرون الوسطى منذ بدء الفتوحات الإسلامية خارج حدود الجزيرة العربية.

2. مرحلة الحروب الصليبية إلى تحلل القوة الإسلامية.

3. مرحلة الغزو الاستشراقي التي كانت تمهيداً للمد الاستعماري الغربي إلى فترة حصول الدول العربية و الإسلامية على استقلالها.

4. المرحلة المعاصرة، حيث اشتدت هجمات الغزو الفكري و الثقافي على

المجتمعات الإسلامية وتتوَع أدواتها.¹

إنّ وسائل الإعلام الغربية -بمختلف أنواعها- مصدراً هاماً في تشكيل

الصورة الإسلامية النمطية في الذهن الغربي بسبب انتشارها الواسع وقدرتها

الرهيبة في الاستقطاب والتأثير، ويمكن للمتلّم في هذه الصورة التي تقدّمها

وسائل الإعلام الغربية أن يكشف عدة ملامح بارزة أهمها:

¹ - أنظر: عبد القادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي، الزهراء للإعلام الغربي، القاهرة، 1993، ط2، ص67.

1. إظهار العرب في صورة المتناقضين دينياً، فهم متطرفون ومناهضون للمسيحية.

2. إظهار العرب بصورة أبطال ألف ليلة وليلة، المحبين للجنس و الشراب.

3. إظهار الإسلام كدين عنف و إرهاب.

4. إظهار العرب كخطر على استغلال النفط¹.

لم يكتف الغرب بتجنيد وسائل الإعلام فحسب، بل استغلّ المدارس

و المعاهد للترويج لتخلف المسلمين والتحذير من خطر التعامل معهم، فاهتمّت

الدول الغربية بانتقاء مناهج « تربّي أبنائها على الإرهاب الفكري وهو أشدّ وأخطر

أنواع الإرهاب؛ لأنّها تساهم في بناء الصورة النمطية عن العرب والمسلمين من

خلال صياغة ذهن الطالب ووجدانه، وتحديد كيفية تعامله مع مجتمعه ونوعيّة

تفاعله مع المجتمعات المحيطة به، خلال المراحل التعليمية المختلفة»².

وذلك بداية من الصف الخامس الابتدائي من خلال كتاب " مغامرات العالم

في الزّمان و المكان" المقرر في مادة الدراسات الاجتماعية والذي ضمّ بين

صفحاته إحياءات عن اقتباس الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعقائد الإسلام

و تعاليمه من لدن الزّهبان النّصارى لوجود تشابه بين محتويات القرآن ومحتويات

التّوراة و الإنجيل.

¹ - أنظر: عبد القادر طاش صورة الإسلام في الإعلام الغربي ، ص 67.

² - ناجية أفجوج: الصورة النمطية للإسلام في المتخيل الغربي سوء فهم أم مركب جهل، مطبعة أنفو-برانت؛ المغرب 2009، ص20.

بالإضافة إلى كتب أخرى خصت هذه المرحلة المبكرة من التعليم ككتاب " تاريخ

العالم من الماضي إلى الحاضر " The World History Past To Present " وكتاب " قصة

عالمنا " "Our World's Story".

كما لم تخل مرحلتي التعليم المتوسط و الثانوي من مثل هذه المناهج و من

أهمها " التحدي الأوروبي للعالم الإسلامي Européen Challenge To The

Muslim World الذي تضمن بعض الإشارات إلى مذابح الأتراك للأرمن، وهو

أمر يتناقض مع تأكيد المراجع التاريخية لتسامح المسلمين مع رعاياهم من غير

المسلمين. كما أنه أشاد ببعض الدعوات الإسلامية كالدعوة الوهابية*

و الصفوية*.¹

لاقت هذه المناهج صدىً كبيراً نظراً للجهد الكبير الذي بذله القائمون عليها

من منصرين ومبشرين الذين أنشأوا أوائل المدارس والجامعات، وخططوا لمناهجها

الدراسية التي اتخذوها مطية لبث أفكارهم أمّا عن المقررات الدراسية الجامعية

فيقوم عليها أكبر المستشرقين والذين يركّز أغلبهم على إبراز الإسلام كما يمارسه

المسلمون، لا كما هو في أصوله الأساسية المصونة عبر التاريخ عن محاولات

¹ - * الوهابية: مصطلح أطلق على حركة إسلامية قامت في شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن الثاني عشر الهجري على يد محمد بن عبد الوهاب (1703-1792) ومحمد بن سعود. خرج أتباعها عن الخلافة العثمانية وأعلنوا الجهاد. قامت بذلك الدولة السعودية الأولى. يؤخذ على الوهابيين معاداتهم للمذاهب الإسلامية الأخرى خاصة الشيعة.

* الصفوية: حركة دينية ذات تطلعات سياسية خفية، تنسب إلى الدولة الصفوية التي حكمت إيران في الفترة من 907 هـ إلى 1148 هـ والتي أسسها الشاه إسماعيل الصفوي الذي قاد عمليات إبادة ضد أهل السنة و الجماعة. انتهت الدولة الصفوية على يد الأفغان عام 1148 هـ. لكن النهج الصفوي ما زال سائدا في إيران إلى يومنا هذا.

الطمس والتشويه، وأن معظم الكتب المقررة متحامل على الإسلام وتصفه بأنه دين عنصري ومتحيز جنسياً ومتخلف وضد التقدم وبربري...¹

ب. نظرة " الأنا " إلى " الآخر " في الفكر الإسلامي:

إنّ " الأنا " في الفكر الإسلامي هي الذات العربية و الإسلامية وما تتبناه من قيم ومبادئ الدين الإسلامي، إضافة إلى التجربة التي قامت بها عبر التاريخ على هدي تلك القيم و المبادئ؛ المسلمون هم السّنة و الشيعة و المذاهب الأخرى، و الإيرانيون و الأتراك و الماليزيون و الباكستانيون و الماليون وغيرهم... أما الآخر في الفكر الإسلامي، فذو ملامح و مواصفات متعدّدة لتفاوت طبيعة الاختلاف مع "الأنا" فأضحى قابلاً لأكثر من تأويل، لهذا تخضع علاقة "الأنا" بـ "الآخر" إلى شروط تاريخية ملموسة من صدام وتنافس وتعايش أحيانا فما فتئت نظرة "الأنا" " للآخر " تتغيّر عبر التاريخ بتغيّر المواقف والظروف. بدأ الوعي بالآخر، في الحضارة الإسلامية في المراحل الأولى من تشكّل المجتمع المسلم، فالآخر مختلف من حيث الانتماء الاجتماعي و العقائدي، وجبت مجادلته كما وجبت معاملته "بالتّي هي أحسن"، وشمل المشركين من جهة و أهل الدّين من نصارى ويهود من جهة أخرى.

«تندرج

إذ مضامين النظرة الغيرية التي تحملها نصوص القرآن الكريم

ضمن تصور شامل للآخر المختلف دينياً، فالرؤية القرآنية للآخر تتحدّد في

المتخيّل الدّيني العام على أساس وحدة الانتماء الإنساني والعقائدي من جهة وعلى

¹ - أنظر: محمد وقيع الله أحمد: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، عرض ونقد، بحث مقدم لنيل جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، 2006، ص 256/89.

قاعدة التمايز و الاختلاف من جهة ثانية. وهكذا يقرّ الخطاب القرآني

بالاختلافات العرقية و اللسانية و الاجتماعية و كذلك في الدين و الرأي».¹

تدرّج النص القرآني في توضيح طبيعة العلاقة التي تربط "الأنا" بالآخر التي كانت

في درجاتها الدنيا عند بداية الدعوة الإسلامية و أهم علاقة قد نميزها العداء و التوتر فكلما

زاد التواصل زاد العداء رغم ما عاناه المجتمع المسلم آنذاك من تعنت الآخر و ظلمه؛ لكن

ما لبث العداء أن اتخذ له منحى آخر حين اصطدم مجتمع "الأنا الإسلامي" بتحالف مجتمع

"الآخر اليهودي" والمشرک، فكان الموقف القرآني صارماً في حكمه على سلبية هؤلاء، لا

لأنهم من دين مختلف، بل لأنهم أضرموا الضغينة و الكراهية، و جاهرُوا بعداوة المسلمين

و محاربتهم إذ أنهم « لم يقفوا عند حدّ إنكار نبوة محمد – صلى الله عليه و سلم – و تنزِيل

القرآن في نطاق المجادلات و المناورات الكلامية، بل تجاوزوه إلى الغدر و نقض العهد

و العداء الفعلي و التحدّي السافر و عدم احترام الوثيقة المبرمة بينهم وبين النبي – عيه

الصلاة و السلام »² فقال فيهم عز و جل " أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يُؤْمِنُونَ " »³. في حين أشاد بمودة النصارى في تلك المرحلة المتقدمة من التاريخ الإسلامي

بقوله سبحانه: « لَنَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ

مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِسِينَ وَرُهْبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ »⁴

ثم توسعت دائرة "الآخر" لتشمل كلّ من ناصب المسلمين العداء، و نقض معاهدات السلام

¹ - إياد عماوي: الأنا و الآخر ودورها في رسم العلاقة بين الوطن العربي و الغرب، خاص بموقع المنشاوي للدراسات و البحوث 2007، ص 17، www.minshawi.com.

² - أنظر: صابر طعيمة: الإسلام و الآخر (دراسة عن وضعية غير المسلمين في مجتمعات المسلمين) مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 2007، ص139.

³ - سورة البقرة: الآية 99.

⁴ - سورة المائدة: الآية 84.

معهم و أصرّ على عدم اتباع الدّين الإسلامي من مشركين و يهود ونصارى كذلك «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۖ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»¹.

و أبقى الإسلام على مبدأ معاملتهم بالحسنى، فنجد الرّسول -عليه الصّلاة و السلام- في خطبة الوداع، التي مثلت دستوراً للأمة يقرّ " أن لا فضل لعربي على أعجمي و لا أبيض على أسود إلاّ بالتقوى" ² كما جاء في كتابه - عليه الصّلاة و السّلام- لعمر بن حزم عامله على اليمن، قوله «ومن كان على نصرانيته أو يهوديته، فإنه لا يُردّ عنها» ولقد وجد المسلمون بعد فتح خيبر نسخاً من التّوراة في حصونهم، فأمرهم عليه السّلام بردها.

أمّا حرمة المال لغير المسلمين، فقد روى ابن هاشم أنّ أحد الرّعاة أسلم وكان أجيراً على غنم مملوكة لليهودي، وذلك أثناء حصار الرّسول لبعض حصون خيبر، فاستشاره الرّاعي عمّا يفعل بالغنم، فأمره - عليه الصّلاة والسلام- أن يردها إلى صاحبها، وهو داخل الحصن المحاصر، فأخذ حفنة من الحصى فرمى بها في وجوها، حتى دخلت الحصن.³

ومع بداية الفتوحات، وتوسّع الدولة الأموية، بدأت النظرة إلى الآخر تتغيّر مع انهيار الإمبراطوريتين العظيمتين، البيزنطية و الفارسيّة، حيث احتلّ " الأنا" - شيئاً فشيئاً- مركز الصّدارة و القوة، ولم يعد الآخر يشكّل أزمة أو تهديداً، فحدّد

¹ - سورة التوبة: الآية 30-31.

² - أخرجه أحمد، البيهقي في الشعب وأبو نعيم في "الحلية". والطبراني في "الكبير".

³ - أنظر: صابر طعيمة: الإسلام و الآخر، ص 299.

بكونه ينتمي إلى دائرة "الغريب" أو بالأحرى المختلف عن النسق الإسلامي من حيث الدين و السلوك، غير أنه لم يُبعد أو يُهمش، بل ظل يتمتع بكلّ حقوق المواطنة.

ويذكر أن بعض نصارى ويهود الأندلس –إبان الحكم الأموي- قد وصل إلى وظائف عليا في الدولة، دون أن يجد المسلمون غضاضة في ذلك، فلقد اتخذ الأمير محمد بن عبد الرحمن كاتباً من النصارى، واستعمل الناصر لدين الله (912-961م) على مدينة أبدة عريفاً من العجم، كما حظي منصور اليهودي المغنّي بثقة الأمير الحكم بن هشام، بالإضافة إلى إقامة العديد من الأديرة و الكنائس في اشبيلية وقرطبة.¹ كما برز العديد من العلماء اليهود الذين لقوا الرعاية و الاهتمام كحسداي بن شبروط الذي عُد من قادة الفكر اليهودي في اسبانيا إبان حكم عبد الرحمن الثالث فبرع في اللغات (العربية، العبرية، اللاتينية) والطب و السياسة مما جعل الخليفة الناصر يعينه في الهيئة الدبلوماسية ضمن مجموعة من شعراء اليهود وعلماء التلمود.²

في العصر العباسي أصبحت بغداد – بعد أن اتخذها العباسيون حاضرة لخلافتهم –مقرّاً لحاخامات اليهود، كما منح النصارى الحرية التامة في ممارسة شعائهم الدينية ولم يتعرضوا بالتدخل في أمورهم كما فتحت الدولة العثمانية الأبواب لليهود وتسامحت معهم، فتسلّلوا إلى أعلى المناصب وبسطوا نفوذهم من خلال سيطرتهم المالية.³

¹ - أنظر: صابر طعيمة: الإسلام و الآخر، ص 361/375.

² - أنظر: يوسف رشاد: اليهود المتخفون و أثرهم في المسيحية و الإسلام قديماً وحديثاً، دار الكتاب العربي، دمشق، 2010، ص 102.

³ - نفس المرجع، ص 456.

و خلاصة القول: «فالإسلام سواء كانت سيادته وسلطانه في أرض عربية أم

عجمية فإن الآخر - نصارى كانوا أم يهوداً- نعموا بما يرضيهم ويسعدهم

ويؤمنهم ديناً، ووطناً».¹

بعد الحروب الصليبية، و الهزائم العسكرية التي مُني بها المسلمون (سقوط

الأندلس 1492م، حملة نابليون على مصر 1798م، التوسع الاستعماري) مروراً

بالتغيرات الفكرية و الدينية المختلفة كالتيصير و الاستشراق ، ركن "الأنا"

الإسلامي إلى التراجع و الضعف و التخلف، في حين انطلق "الآخر" نحو القوة

و التفوق و الرقي، فأخذت العلاقة بينهما سبيلاً آخر، عمق أسباب الصراع عبر

الفترات اللاحقة ، إذ كلما زاد ضعف "الأنا" تعددت "الذوات" المقابلة له توحدت في

نظرتها إليه وسُبل محاربتة و تقويضه، إلا أنّ "الأنا" نظر إلى كلّ "ذات" على

حدى بحسب قربها و بعدها و شدة عدائها فقد «تختلف صورة "الآخر" في السلم

عنها في الحرب، أي أنّ "الآخر" تتحدد صورته طبقاً لعلاقته الإيجابية أو السلبية

بـ "الأنا"».²

ومن بين "الذوات" المقابلة لـ "الأنا" المختلفة عنه -جذرياً- و التي ما فتئت

علاقته بها تتأرجح بين العداء و التنافس و الانبهار ما اصطلاح عليه باسم

"الغرب" بماهيته الجغرافية وحمولته الفكرية، فعلى أيّ أساس كان التباين

و الاختلاف؟

¹ - صابر طعيمة: الإسلام و الآخر، ص 327.

² - عمرو عبد العالي علّام: الأنا و الآخر، الشخصية العربية و الشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر، ص 13.

لم تكن تحمل كلمة "غرب" في المرجعية العربية، غير معناها الجغرافي

جهة غروب الشمس، بينما في المرجعية الأوروبية تحيل الكلمة إلى "أنا" وتحدّد

"الآخر" المقابل له، الشرق (الأدنى، الأوسط، الأقصى) أو شرق المعسكر

الشيوعي، وبعد سقوط هذا الأخير، تفرّد الإسلام بحظوة "الآخر" الأكثر اختلافا

و تناقضا، فلقد « عرفت العقود الأخيرة من القرن الماضي، ومنذ اندلاع الثورة

الإيرانية بصفة خاصة، اهتماما متزايدا بموضوع الإسلام والغرب، وقد بدأ هذا

الأمر في أوروبا و أمريكا أكثر منه في البلاد العربية و الإسلامية، حيث عقدت

إلى جانب ما ينشر في كبريات الصّحف و المجلات، بمختلف اللغات الأوروبية

وبصورة متزايدة تكاد تكون يومية- العديد من الندوات وورش العمل و المؤتمرات

ثم تطوّر الأمر بعد ذلك وتوسّع الكلام في هذا الموضوع ليندرج أخيراً تحت ما

أسماه "هانتجتون" ب " صراع الحضارات"، وهو الصّراع الذي يتركّز عنده على

محور "الغرب و الإسلام" بحيث يجعل منه الصّراع الرئيسي الذي سيسود حسب

زعمه في المستقبل المنظور».¹

لا ينظر الغرب إلى الإسلام كمجرد دين، كالبودية و الهندوسية، بل لقد أصبح مرآة

يرى فيها الغرب ذاته ومن ثمّ يسقط عليه تعدديته و تقسيماته ويجعل منه الآخر لكل وجه

من وجوهه، فالإسلام هو " آخر " على مستوى الدين، و آخر على مستوى البلدان

و الشّعوب و آخر على مستوى الحضارة كذلك، وهكذا يتحدد الإسلام في مرجعية الغرب لا

بما هو نفسه حقيقته و أصوله ، بل بما هو آخر للغرب ضمن ضدية متنافرة .

¹ - محمد حلمي عبد الوهاب: قراءة في كتاب " الإسلام و الغرب ... الأنا و الآخر " جدالات التناحر و التقارب بين الإسلام و الغرب، إسلام أونلاين.

نتج عن هذه العلاقات التاريخية التي ربطت بين هذين الكيانين الإسلامي والغربي، آثاراً عميقة على مستوى القيم و الأفكار و المشاعر، فانقسم الفكر العربي الإسلامي الحديث من الغرب وحضارته وثقافته وعلومه إلى ثلاثة تيارات كبرى هي:

- أ. تيار الرّفص: وهو تيار تراثي سلفي يدعو إلى تجاوز الحداثة و التغريب و الارتواء في أحضان "الآخر"، ويكتفي بالأصالة على أنها منفذ النجدة من الانحطاط و التخلّف.
- ب. تيار التأييد و القبول و الاستفادة: يرى ضرورة الانفتاح على الغرب الأوروبي علمياً وثقافياً وسياسياً وتكنولوجياً، فالتّقدم الذي حقّقه هذا الأخير في مجال الفكر و الثقافة و العلوم وفي مجال الحرية و الديمقراطية وتنظيم المجتمع، كفيل بالاقْتداء و الاتّباع.
- ج. تيار الجمع و التوفيق بين الوافد و الموروث: بحيث يتمّ قبول الوافد الذي ينسجم مع الموروث ولا يعارضه فالحضارة الغربية طابعها عالمي شمولي لذا فرفض الغرب و القطيعة مع حضارته انتحار حضاري وسقوط في وحل الضياع و التّخلّف، أمّا قبول الغرب و السقوط في حضارته تغريباً و تغريباً انتحار للهوية الثقافية و الدّينية و التاريخية، و الوسطيّة هي سبيل التّخلّص من الانتحار الحضاري أو انتحار الهوية.¹

¹ - أنظر: جلال بوبكر: موقف الفكر العربي المعاصر من الحضارة الغربية بين السّلب و الإيجاب، الموسوعة الإسلامية، عدد 2012-06-14.

لا تزال هذه التيارات سائدة قد تشتت أو تخفّ بإيعاز من عوامل متعدّدة ظرفية أو دائمة ليبقى الغرب بالنسبة " للأنا " الإسلامية المعيار الذي يقيس به " الأنا " تقدمه وتطوره على المستوى التكنولوجي والاجتماعي و السياسي، إذ في فترة من الفترات أُختزل " الدين " من معادلة العداء مع الغرب، فلم يعد هناك " غربا متدينا " بالمعنى الصحيح من جهة ومن جهة أخرى أدّى زرع دولة إسرائيل في قلب الأمة العربية إلى تلاشي الفروقات الدينية —مسلمين و مسيحيين— (فوحدة الواقع و المصير، و التاريخ الذي يربط العرب فيما بينهم جعل من مسيحي لبنان العراق أو سوريا ... جزء من " الأنا " فأصبح تراث المسيحيين العرب، مصدراً من مصادر الثقافة الإسلامية إذ « أصبح تراثاً مشتركاً لحضارة العروبة بمسلميها ومسيحييها »¹) كما أدركوا أن المسيحية التي يجلبها الغرب ما هي إلاّ حيلة و مطية من المطايا يريد أن يتسلّل بها إلى المنطقة العربية « وكأنّها حصان طروادة، هذا النوع من المسيحية هو مصدر المخاطر على العرب المسلمين و المسيحيين »².

فكان لزاماً النّظر إلى "آخر" أكثر تهديداً وقوة هو "الآخر" اليهودي...

بعد احتلال فلسطين (سنة 1948) من طرف الكيان الصهيوني، تجددت علاقة "الأنا" الإسلامي بـ "الآخر" اليهودي في ظروف مغايرة ومنظور مختلف.

لقد كانت الشخصية اليهودية معروفة لدى العرب و المسلمين قبل هذه الفترة عبر التاريخ المشترك والمرجعيات المتقاربة.

أوضح الخطاب القرآني أدق ملامح هذه الشخصية عبر فترات زمنية طويلة، و « القرآن في حديثه عن بني إسرائيل في هذه المراحل من حياتهم الطويلة، وهذه المشاهد من تاريخهم المديد، كان

¹ - صابر طعيمة: الإسلام و الآخر، ص 431.

² - نفس المرجع، ص 431.

يعرض علينا كثيرا من صفاتهم و سماتهم وطباعهم و أخلاقهم و خفايا مكنونات نفوسهم، وسرّ النشوة و الانحراف في شخصياتهم، وصلاتهم "المزاجية" بريهم و دينهم و أنبيائهم وحقدهم الأسود على الحق و الخير والفضيلة¹.¹ فوصفهم بنقض العهود و الكذب، و الكثير من الصفات الأخرى التي جعلت من الشخصية اليهودية "الآخر" النموذج الأكثر خصوصية وتمييزا لما لا وهي تعتنق مبدأ الأفضلية و القداسة على سائر الشعوب، وتعيش حالة من "الانغلاق" على الذات، أملت عليها نوعاً خاصاً من السلوكات الشاذة التي تخصّ اليهود دون غيرهم كإباحة مجموعة من الموبقات في حقّ غير اليهود كالزنا و القتل و السرقة.²

أصبحت فكرة الانفصالية وتجنب الآخر أكثر حدّة «مع بروز فكرة الصهيونية التي كرّست عزل اليهود عن الآخرين، وأكّدت أهمية الاهتمام بالهوية القومية و الحفاظ عليها وعدم الدّوبان في "الآخر" أو الاندماج معه، و تأكّدت هذه الفكرة، بعد إنشاء الدّولة الصهيونية التي انطلقت من فكرة استبعاد الأغيار، و تأكيد الفصل عنهم³ وهي في الأساس فكرة دينية تلمودية أسّس لها "العهد القديم"⁴ وعاش على هداها وآمن بها اليهود أينما وُجدوا، فهم يشيرون إلى غيرهم « بكلمة Gentiles؛ وهي كلمة من أصل لاتيني (Geno) (Gentiles) وُضعت للإشارة إلى غير اليهود بصفة عامة، ويتضمن المصطلح مفهوماً

¹ - صلاح عبد الفتاح الخالدي: الشخصية اليهودية من خلال القرآن، تاريخ و سمات ومصير، دار القلم، دمشق، 1998، ص 11.

² - تبيح نصوص التلمود و التوراة سرقة اليهود لغيرهم فهي حلال، فالأرض ملك لليهود، ولهم الحق في التسلّط عليها و استرداد ما أخذه الآخرون بالسرقة.

³ - رقية العلواني، الأب كريستيان فان نيسين، سمير مرقس، القس إكرام لمعي: مفهوم الآخر في اليهودية و المسيحية، تحرير منى أبو الفضل و نادية محمود، دار الفكر، دمشق، 2008، ص 71.

⁴ - old testament تعني في -العبرية- العهد الذي بين الرب و ابراهيم عليه السلام وبني إسرائيل وهي أسفار قام عررا بجمعها في عام 444 ق.م مجموعها تسعة و ثلاثون سفرًا أو أربعة وعشرون.

يشير إلى الدونية و احتقارا لغير اليهود «¹ وكذلك المصطلح العبري goi أو goyyim التي

تعني في الأصل "شعب أو قوم و لكنها استعملت للدلالة على الأمم و الأقوام الأخرى ومن

هذا الاستعمال جاء معناها "الغريب" أو "الآخر".²

بعد الجرائم البشعة و التطهير العرقي الذي ارتكبه الصهاينة ضدّ الشعب

الفلسطيني أصبح "الآخر" اليهودي، "الآخر" الأكثر مقتاً وكرهية من طرف

المسلمين، ولم يعد الصراع بينهم صراعاً سياسياً أو دينياً، بل هو صراع وجود

فلقد أثبتت المعطيات التاريخية استحالة تعايش الكيانين -رغم الكثير من

المحاولات-؛ ف "الأنا" -في الحالتين- لا تتفك تنظر إلى "الآخر" نظرة حقد

وكرهية تزداد حدة مع مرور الوقت.

ج . الآخر في حياة مالك بن نبي:

يكاد حضور "الآخر" يكون طاغيا في الخطاب الإسلامي في فترة ما قبل

الغزو الاستعماري للعالم الإسلامي إلى بُعيد الاستقلال و التحرّر، بحيث تناولته

الدراسات الإسلامية من زاويتين مختلفتين تماما فهو إما "صديق راقى الأخلاق" أو

"عدو حقير".

أما مالك بن نبي ذو الجذور الإسلامية المتينة و الخبرة العميقة الناجمة عن

التعامل المباشر مع الآخر، فلقد وقف موقفا وسطيا من التيارات الفكرية السائدة

آنذاك في العالم الإسلامي، سواء التي أيدت حضارة الغرب وسارت في ركابه، أو

التي رأت أن الغرب شر كله ووجب تجنبه ورفضه.

¹ -رقية العلواني و آخرون: مفهوم الآخر اليهودية و المسيحية، ص 6.

² - ينظر: نفس المصدر، ص 46.

بل لقد دعا إلى التعرف على الغرب عن قرب وتطوير آليات التعامل مع

الحضارة الغربية وفق بند الإفادة والاستفادة. « وهذا لا يجعل العالم الإسلامي

تابعاً في حوله للغرب، وإنما يتطلب منه أن يعرف التجارب حتى يتحقق من مدى

نسبيتها ومدى قابليتها للنقل والاستفادة، فإذا ما أدرك العالم الإسلامي أن صدق

الظواهر الغربية مسألة نسبية، فسيكون من السهل عليه أن يعرف أوجه النقص

فيها، كما سيعرف جوانب عظمتها الحقيقية، وبهذا تصبح الصلات مع العالم

الغربي أكثر خصوبة، ويسمح ذلك للنخبة المسلمة أن تمتلك نموذجها الخاص

تتسج عليه فكرها ونشاطها».¹

فلكي نحكم على "الآخر" بعدل وموضوعية وجب فهمه في عمقه، و التّمعّن

في ما يميزه سلباً و ايجاباً، أي الاطلاع على فكره ضمن "شئى التفاعلات النّبي

شكّلت بنية العقل الأوروبي في كل المجالات المختلفة: الدين، الفلسفة، الأدب

الاقتصاد، التاريخ، السياسة ... فهو مفهوم شامل يحتضن كل هذه المجالات

فنحن أمام نسيج معرفي مترابط الأجزاء ذي منهجية معينة تتألف أجزاؤه في شكل

مترابط".²

احتك بن نبي بالأوروبيين سواء الذين عاشوا في الجزائر، أم الذين التقاهم

في فرنسا إبّان وبعد الاحتلال وتحدث عن شخصيات هامة كان لها الأثر الكبير

في حياته سواء بالسّلب أو بالإيجاب.

¹ - بدران بن الحسن: معرفة الغرب في السياق الحضاري، قراءة في تراث مالك بن نبي، مقدمات في الإطار النظري و أهمية الغرب، البصائر العدد 809، 29 ماي 2016.

² - مولاي الخليفة لمشيبي: مالك بن نبي، دراسة استقرائية مقارنة، معالم المنهج في تأصيل العلوم الإنسانية لمشروع "مشكلات الحضارة"، دار محاكاة للدراسات و النشر و التوزيع، دمشق، 2012، ص 59.

في سنة 1921 التحق بن نبي بالمدرسة الثانوية بقسنطينة و كانت الدراسة

فيها باللغتين الفرنسية والعربية حيث التقى بالسيد "مارتان" وأبدى اعجابا كبيرا به

إذ كان أستاذاً متمكناً، أثرى تلاميذه بالمفردات، وصقل داخلهم الذوق وفن الكتابة

«ولقد أشار بن نبي في مذكراته إلى انسجامه الكامل مع المسيو مارتان الذي كان

يدرّس الفرنسية وآدابها بطريقة غرست فيه حب القراءة، ونمت ذائقته الأدبية

والبلاغية، ولذلك انكبّ بن نبي على الأدب فقرأ روايات جوليس، وبيير لوتي

وكلودفاريير، ومن الكتب التي غدت اهتماماته الفكرية كتاب "كيف تفكر" لجون

ديوي، و " التاريخ الاجتماعي للبشرية" لكلودتلمونت...»¹.

كما التقى أيضا بالمسيو " بوبريتي " الذي برع في توجيهه نحو القراءة الحرة

التي فتحت له آفاقا جديدة في الأدب و الفكر، وقد استفاد في أثناء ذلك من

المنهجية الغربية بما فيها من تمحيص علمي و أسلوب تحليلي وتفكير نقدي².

بعد تخرج مالك بن نبي من الثانوية سافر إلى فرنسا حيث التحق بوحدة

الشباب المسيحيين الفرنسيين الموجودة بباريس سنة 1932 ولقد جذبه إليها بداية

الوجبات الرخيصة التي كانت تقدم لأعضائها، فقرر الانضمام إليها، لكنّه يؤكد

فيما بعد أن انضمامه إلى الوحدة كان من بين أهم العوامل التي سرعت في

نضجه فكريا و عاطفيا.

يسرد مالك واقعة ملأ استمارة الانضمام إلى هذه الوحدة، حيث اختلط عليه

الأمر، ووجد نفسه أمام اختبار أخلاقي، حين طلب منه إدراج الدين الذي ينتمي

¹ - فوزية بربون: مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة، دار الفكر، دمشق، 2010، ص 106/105.

² - نفس المرجع ، ص 107.

إليه، فلم يكذب، ولقد قُبل في الجمعية المسيحية مع كونه مسلماً، ويقرّ أن مناقشاته مع زملائه المسيحيين ساعدته على التفكير و التحليل.

تعددت علاقة مالك بوسط المثقفين المسيحيين وتوطدت حبال الود بأغلبهم

لحسن معشرهم ودمائة أخلاقهم، إذ يقول فيهم «إنّ الشبان المسيحيون الذين كنت

أعاشرهم غاية في الطيبة، وكانوا أخلاقياً وفكرياً أكثر غنى من الأهالي و بخاصة

الجزائريين ممن كنت ألتقي في الحي اللاتيني».¹

وهذا اعتراف يثير بعض الدهشة لما عُرف عن مالك في تلك الحقبة من

تزمّت ديني ووطني لكن الاستغراب يزول ويتلاشى حين نتعرف على نوع الأهالي

الذين يقصدهم، إذا انضم في بداية إقامته بفرنسا إلى طبقة مثقفة متعددة المشارب

الدينية و السياسية تكتلت ضمن جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا ومما اخذه

على الجماعة عدم الثبوت على مبدأ أخلاقي أو دين، فكانت المصلحة هي

المحرك الأساسي لهم فأفسدت طباعهم، حيث غدى التزلف للآخر و التذلل له

للوصول إلى منصب في الحكومة الفرنسية أمراً مشروعاً "فبعضهم تنصّر كما

حال إيبيريزن الذي أنهى دراسته في القانون بمشقة كبرى و البعض الآخر

تفرنس، كما كان شأن حسين لحق الذي أكمل دراسته هو الآخر ونشر بعدها

كتابه المعروف " lettres algériennes " "رسائل جزائرية" وهو كتاب تولّى

الآباء البيض أنفسهم الترويج له وبيعه لزوار "معرض الاستعمار".²

¹ - مالك بن نبي: العفن مذكرات الجزء الأول (1932-1940) تقديم الدكتور أحمد بن نعمان، تصدير بقلم عبد الرحمن بن عمارة، ترجمة نور الدين خندودي، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 31.

² - مالك بن نبي: : العفن مذكرات الجزء الأول ، ص 23.

في عُرف مالك بن نبي لم يكن " الآخر " عدواً دائماً، فهو لم يكتف باحترام الشبان المسيحيين وتقديرهم، بل أثنى على رقي أخلاقهم وعمق أفكارهم وحسن معشرهم بعد مقارنات عديدة أجراها بينهم وبين العرب الوافدين من شمال أفريقيا والذين كان يلتقيهم في مقهى يزورها مساء كل سبت.

لم تقف علاقة بن نبي و الآخر عند حدود الصداقة، بل أصبحت أقرب من ذلك و أعمق، حيث دخلت نطاق المصاهرة و العيش ضمن إطار العائلة ففي عام 1932 تزوج من فتاة فرنسية، اعتنقت الإسلام وتسمت بخديجة، تحدث بن نبي عن عائلتها البسيطة و الطيبة، كما يذكرها في مذكراته ويصفها بأنها كانت « زوجة مدبرة، وربة بيت حاذقة، مثقفة، ذكية ذات ذوق جمالي رفيع ومعتزلاً بأثرها في نموه الفكري وتشجيعها له على المضي في دراسته العلمية ونشاطه الفكري. وقد استطاعت خديجة الفرنسية أن تقرب إلى زوجها قيم الحضارة الغربية التي شكلت شخصيتها و أسلوبها في الحياة، الأمر الذي ساعد بن نبي على استيعاب الثقافة الفرنسية، بل النفاذ إلى أبعاد الحضارة الغربية».¹

إنّ هذا الجانب المضيء للآخر الذي أناره مالك بموضوعية، وكذا الاعتراف بفضل وأيديه البيضاء التي لم يفتأ يذكرها و يشيد بها، أخذت منحى آخر في تحليلات بن نبي، إلى درجة الإحساس بالامتتان والأفضلية خاصة إذا تعلق الأمر بماهية طلب العلم لذاته، و السير في هذا النهج دون كلل أو ادعاء أو غرور، إذ يورد بحيادية حادثة اندهاشه من تواضع مدير مدرسة الهندسة

الميكانيكية بفرنسا (الذي كان يقدره ويحله ويعتبره "قديساً" بقوله « طالما كنت

¹ - فوزية برون: مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة، ص 116.

معجباً به لعلمه ولتواضعه الكبير، وكنت سعيداً بالحديث معه طيلة الأربع سنوات

التي استغرقتها دراستي، ومن جانبه، كان يستقبلني دوماً بتلطف لم يكن خافياً

عليّ. «¹ ويزيد في إكباره حين اعترف بعدم معرفة كل شيء خاص بالرياضيات، إذ

يؤكد مالك أنّ ما أثار انتباهه في أوربا « هو روح العلم l'esprit de la science

أكثر من العلم نفسه، أدركت أنّ هذه "الروح" بهذا التّألق، وهذه الجاذبية الإنسانية

أي كل فعالية العلم الغربي تمر دون أن ينتبه لها أحد من غالبية الطلبة المسلمين

الذين يسعون عند قدومهم أوربا، الظفر بشهادة جامعية فقط».²

بقدر ما كان بن نبي موضوعياً نزيهاً، وكريم الأخلاق، أخفق الآخر في

الجانب الآخر من المعادلة، إذ تراكمت حوادث عدة، لم يستطع بن نبي تجاوزها

حين تجمعت و شكّلت هراً ثقيلاً وقف دون تحقيق الكثير من الآمال و الأحلام

البسيط منها و المعقدة لا شيء إلاّ لأنه ابن المستعمرات.

منذ نعومة أظافره، وبدايات تعاطيه مع الآخر في المدرسة الابتدائية، أظهر

نبوغاً وتفوقاً، أضحى بن نبي "مؤهلاً" أن ترصده أعين الآخر و تحيطه "بعنايتها"

إذ يذكر بن نبي أن نجاحه فيها لم يسلم من التمييز العنصري، فمع أنه حصل

على أعلى الدرجات طوال السنة الأخيرة من دراسته الابتدائية فإنه لم يمنح

الأولوية التي يستحقها على طلاب فصله، بل " منحت لزميله الفرنسي " .³

واشتد الأمر لما هاجر إلى فرنسا وتبلورت شخصيته واتضحت معالمها و قناعاتها

فأضحى "مؤهلاً" بجدارة لأن يكون هدفاً لكراهية "الآخر" ومكره، إذ تميّز بن نبي من بين

¹ - مالك بن نبي: العفن، ص 123.

² - مالك بن نبي، نفس المصدر، ص 51.

³ - مالك بن نبي، نفس المصدر، ص 60.

أعضاء جمعية الطلبة المسلمين لشمال أفريقيا بفكره التوحيدي وعناده الشديد، وثباته على مقوماته الدينية و الوطنية، فيقول معللاً « أصبحت مشهوراً كداعية إسلامي إلى درجة أنه إذا كان ثمة أحد من مصلحته أن يسجل أفعالي وحركاتي فسيلاحظ حتماً أنني عنصر لم تكن لديه قابلية لاعتناق المسيحية وحسب بل بالعكس، يشكل "خطراً" على الشبان النصاري الذين كنت أحتك بهم، إذ كنت أكشف لهم عن إسلام لا علاقة له بإسلام الأندجيين "الأهالي" الذي يصل إلى أسماعهم».¹

يكاد "الآخر العدو" في حياة بن نبي أن يتلخص في شخص واحد، أبي إلا أن يجعل مستقبل بن نبي لعبته الخاصة، يوجهها أنى شاء وكيف شاء، بخلق العراقيين و سدّ الأبواب المفتوحة. يؤكد مالك أن الكلّ كان تحت أنظار ماسينيون أو ميسيوإيكس " Mrx" و تحت تصرّفه، فلقد كان تلميذ دو فوكو المتميز يلمّ «جميع الخيوط التي تحرك عالمنا الصّغير كانت بين يديّ هذا الأخير، وكان هو نفسه خفياً، متوارياً كالعنكبوت في بيتها».³

ثم شيئاً فشيئاً بدأت بوادر تأثير ماسينيون (Mrx) تلقي بظلالها على حياة بن نبي، فتحول بعض الأشخاص "الأخيار" بلمسة من ماسينيون إلى مجرد "أدوات" تؤدي الغرض المطلوب منها، حين يتحدث عن مدير مدرسة الميكانيكا الذي عدّه "قديساً" فإذا به يشارك في ما أسماها مالك بـ "خيبة أمل كبرى" بعد أن واجه التلاعب بنتائج امتحاناته ثم الرسوب سنة 1936 بإيعاز من ماسينيون رغم

¹ - مالك بن نبي ، العفن ، ج 1 ، ص 31 .

² - لويس ماسينيون (1883-1962) مستشرق فرنسي شغل مناصب هامة، كمستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا، وكذلك الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر. أتقن اللغات العربية و التركية والفارسية و الألمانية و الإنكليزية، استهواه الأدب الصوفي الإسلامي، مترجم "ديوان الحلاج".

³ - مالك بن نبي: العفن، ص 26.

تفوّقه و اعتراف أستاذ الكهرباء التّقنية بعد أن طرح عليه سؤالاً من خارج المقرّر

بقوله: "أنت لم تحفظ درسك فحسب، بل فهمته".¹

وبعد احتجاجه -الذي لم يؤت ثماره- لدى مدير المدرسة، تأثّر مالك أيّما

تأثّر لهذا الحيف الذي وقع عليه بقوله: « لم أكن أتصوّر مطلقاً، أن " رجلاً قديساً

" يقبل بالتآمر على طالب وهو يتذرّع بمسوغ "العدالة" وظهرت لي بشاعة القضية

وبالها من بشاعة فقد كانت لي ذاكرة دفعتني في العديد من المواد، فكان زملائي

يطلبون منّي حلولاً لمسألة أو شرحاً لنظرية من النظريات». ²

كان مالك يعي في قرارة نفسه أن المقاسات و المعايير التي خضع لها

استثنائية، ولم تستهدف في شخصه أنه فرداً من " الأهالي " بل قضية أخرى أكثر

دقة، فقد كان المعنى هو ضرورة توقيف ضمير وذكاء في الحال".³

و بالرغم من ذلك لم يخفت نشاط مالك ولم تهن عزمته، فبعد أن كان منظر وحدة

شمال أفريقيا والداعية الإسلامي في اتحاد الشبان المسيحيين و المناضل في سبيل الوحدة

الإسلامية في الحيّ اللاتيني، فإذا به يحيط نفسه بلغز جديد لينضم إلى جمعية " الجامعة

العربية" التي أنشأها في فرنسا الدبلوماسي السوري فريد زين الدين و المصري فريد صليب.⁴

بادئ الأمر، لم يدرك مالك خطورة التعامل مع شخصية كـ "ماسينيون" وهو

في عنفوان شبابه وفي مرحلة زمنية تميزت بغزارة أحداثها وخصوبة أفكارها

وفضائها الثقافي الذي ضمّ شباباً فرنسياً مثقفاً واعياً بالفكر الغربي و توجهاته

¹ - ينظر مالك بن نبي: العفن، ص 116.

² - نفس المصدر، ص 124.

³ - نفس المصدر ، ص 124.

⁴ - نفس المصدر ، ص 33.

الفلسفة و الاجتماعية و السياسية و ثلة من الطبقة المثقفة و السياسية من العرب

و المسلمين سواء القادمين من شمال أفريقيا أو من المشرق العربي، إلى أن

جاءت الضربة الموجهة، فكان أول الضحايا، والد بن نبي -المعيل الوحيد لأسرته

في الجزائر، ولابنه في المهجر- الذي أُقيل من منصب الخوجة الذي شغله لمدة

اثنين و عشرين سنة ويؤكد مالك أن "باتيستي" أحد تلاميذ ماسينيون، هو من كان

وراء هذا الإجراء العقابي، فيقول بحسرة " لم يكن لديّ شعور البتّة بأن ما أقوم به

سيدفع ثمنه أبي" ¹ ، فأصبحت دراسة مالك صعبة و غير مضمونة ، فأيقن عندها

أن ما ينادي به الغرب من حرية تعبير و تكافؤ فرص أمر لا يخص الأهالي في

المستعمرات «فماسينيون يدرك جيداً أن الاستعمار يجب أن يكون له وجهان: وجه

المحضّر الذي يقدم نفسه بهذه الصّفة للفرنسي الذي يجب انتزاع صوته لصالح

العمل المحضّر *Œuvre Civilisatrice* والنّزعة المحرّرة للاستعمار .

ثمّ وجه المضطهد الذي يتعيّن إظهاره لأهالي المستعمرات "الأنديجين"

لإخضاعهم وإذلالهم ² . فتحول نشاط بن نبي الفكري و السياسي ومحاولته و رفاقه

كشف حقيقة الاستعمار ، أمام النّزهاء من الفرنسيين إلى "خطر" وجب إزاحته

فيقول في ذلك « بدأت شخصياً أتحمّس وأعي هذا "الخطر" من أفكار، كما

¹ - مالك بن نبي : العفن ، ج 1 ، ص 60.

² - نفس المصدر، ص 55.

بدأت أحسّ "بالخطر" الخاص لماسينيون على مستقبلي الذي لا يزال بعيداً، وعلى وضع عائلتي فضلاً عن والدي».¹

إنّ عناد مالك بن نبي تلك الخاصية الخلقية التي تمتدّ عميقاً في تربيته، إضافة إلى مبادئ الصّمود التي اعتنقها عبر مراحل حياته من العوامل التي زادت من تعصّب الآخر ضده، فلقد استقرّ في الذّهنية الاستعمارية أنّ "الأندجيين" في

تلك المرحلة « يدفع إلى الأمام الفكرة التي يوحي له بها الممدّن civilisateur

كانت هذه الفكرة ثابتة لدى ماسينيون كمعطى ثابت مطلق في نفسية

"الأندجيين" ² « لكن بن نبي لم يمتثل للقاعدة و ما كان منتظراً منه، لذا أصيب

ماسينيون بالخيبة و الإحباط أمام سكوت مالك و إصراره.

إنّ عبارات المقاومة و عدم الاستسلام كثيرة في قاموس مالك بن نبي مع أنّ عدم العمل منذ تخرجه، وضعه أمام سؤال هام « هل عليّ البحث عن عمل آخر و أترك الكتابة؟ لقد قمت

بمحاولاتي كلّها منذ عام 1936، أبحث عن عمل حين أنهيت دراستي الهندسية، لكن دون

فائدة؛ لأنّ مكتب المخابرات النفسية -عبر ماسينيون- كان بالمرصاد، فإذا كان أحد من

"الأندجيين" في وضع سيء أمام الرّحمة المسيحية الأوروبية، لم يكن أمامه إلّا أن ينتحر، إذا

ما فقد صبره وخارت مقاومته المعنوية، لذا لقد قررت أن أستمّر في المقاومة».³

كان الآخر أكثر مقاومة وعناداً، فتفنّن في خلق ألوان من المعاناة في ظلّ حصار مخابراتي

فاعل ومؤثّر، فاستحالت حياة بن نبي في فرنسا، فحاول الانتقال إلى مصر « لكن ماسينيون

¹ - مالك بن نبي : العفن ، ص 88.

² - عمر مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، دراسة جامعة لحياته و انتاجه في مراحلها الثالث: الميلاد و النشأة و الإنتاج الفكري، دار الفكر، دمشق، 2013، ص 238.

³ - نفس المرجع ، ص 238.

يحرص ويراقب فكّلت مساعي الشيوخ -يقصد أعضاء البعثة الجامعية المصرية في باريس

الذين وسطهم لمساعدته على السفر إلى مصر لدى سفارتهم بالفشل المطلق».¹

فيئس و استسلم، فلقد أفلح " ميسيو إكس" في خلق بلبله و ارتباك داخل

مالك اتجاه الإسلام و المسلمين إلى درجة قوله « أعتقد أنني لم أكن بعيداً جداً

عن الردّة عن الإسلام في تلكم الأيام، هذا الإسلام الذي خانته المسلمون و الذي

لم أرى فيه أيّ روح أو مهب عقل، لقد أدركت بعدها أنّ هذا بالذات هو هدف

ماسينيون: إلهامي بغضاً شديداً لإخواني في الدين «² بل الأدهى من ذلك أن

تسربت فكرة الانتحار إلى أعماقه، بعد أن سُدّت كل أبواب الهجرة أمامه سواء إلى

الحجاز، أفغانستان أم إلى تيرانا ³ فأدرك بكلّ تأكيد « أنّ هذا الرجل -ماسينيون-

يقف حاجزاً أمام كل المخارج التي أحاول عبرها أن أنجو من مقرعة

الاستعمار «.⁴ ولم يكتف بهذا، إذ امتدّ نفوذ "ميسيوإيكس" ليضيق عليه لقمة العيش

فبعد أن تقدّم لمسابقة محاسب في الدائرة التقنية المدفعية وكان ترتيبه الأول في

الكتابي، تلقّى بعد أسبوعين من إجراء المسابقة إشعاراً من وزارة الحرب يخبره أنّه

لا يتوفر على شروط الامتحان، كما حاول التوظّف في شركة للطاقة الكهربائية

إلاّ أنّ مساعيه باءت بالفشل الدريع، فأدرك « أنّ النظام الفرنسي لا يسمح

¹ - مالك بن نبي: العفن، ص 129.

² - نفس المصدر، ص 123.

³ - تيرانا: عاصمة ألبانيا و أكبر مدنها، أسست سنة 1614 و أصبحت عاصمة البلاد سنة 1920.

⁴ - مالك بن نبي، العفن، ص 134.

وبالمطلق أن يكتسب أحد من الأهالي من سكان المستعمرات تكويناً تقنياً، وإذا

تمكّن جريء من الظفر به، يتكفل النظام بضياعه بجميع الوسائل».¹

ثم تقدّم لعدّة مناصب شغل -ضمن تخصصه- كمهندس صوت بإحدى

الشركات السنيمائية، أو كنتقني في شركة العتاد الهاتفي، لكنّه رُفض، وكان يردّد

كل مرّة يخفق فيها " لعلّ ماسينيون مرّ من هنا" ²لأنّنه أيقن وبعمق أنّ هدف هذا

المستشرق العتيد هو القضاء على فكره وتحطيم إراداته، أو بعبارة دقيقة جاءت

على لسان مالك يقول فيها « لقد كان هدف ماسينيون، منعي من العيش بكل

بساطة، يجب أن أهلك، أو أن أنحطّ أو قل أنحطّ حتّى تحبط كل "محاولات

أندجين" فيستتكف إرادياً عن الولوج للمهن التقنية».³

إلاّ أنّه من رحم المعاناة تولد الهمم العالية فبعد أن عرف الفقر، وقصر

ذات اليد، لم تتغيّر سريرة مالك، ولم يحد عن مساره الفكري، بل لقد فهم أسرار

اللعبة - مع تقدّمه في السن - وتقطّن إلى نظرة "الآخر" إليه إذ كان الغرض أن

ينحرف عن مساره الفكري، ويقبل بأقل الأعمال أهمية، فلجأ إلى المهادنة لفترة من

الزمن، فعمل في سلك الشرطة بمدينة قسنطينة، ثم مدرّساً بمرسيليا، كما عمل في

أحد مصانع ألمانيا، حيث كان مراقباً من قبل الألمان، الأمر الذي أدهشه لأنّه

انقطع في تلك الفترة إلى الصلّاة وقراءة القرآن و انعزل عن المجتمع فكان رئيس

الكامب lagerfuhrer يأتيه يومياً ليراه و يتأكد من أوضاعه.⁴

¹ - مالك بن نبي ، العفن، ص 141.

² - ينظر مالك بن نبي: العفن، ص 187/188.

³ - نفس المصدر، ص 144.

⁴ - ينظر عمر المسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ص 213.

ثم لم تمر مدة طويلة، بعد التجربة المذلة التي قضاها مالك في المعتقل

الفرنسي، أن كشف -علنا- عن اتجاهه الفكري بعد نشر كتاب "الظاهرة القرآنية"

و "شروط النهضة" و "وجهة العالم الإسلامي". و أصبح -رسمياً- رقماً صعباً

لدى الشرطة الفرنسية أينما حلّ. لقد كانت آلام بن نبي ومعاناته منذ عام

1932حتى بداية الخمسينات هي التي أنضجت أفكاره وقوّت شخصه و أضحت

كل محاولات ماسينيون للقضاء عليه وزرع بذور اليأس و الفشل داخله، عوامل

مناعية أسهمت في خلق "مالك بن نبي" المفكر الإسلامي المتميّز.

أمّا عن موقفه من اليهود، فلقد كانت الرؤية مختلفة تماماً، فهو لم يتحدّث

عن اليهود كأفراد، بل كمجتمع كثيراً ما وصفه بأنّه متماسك، متكاتف يسعى إلى

تحقيق هدف معيّن ضمن خطة مدروسة ومحدّدة لا تقبل أدنى خطأ.

تعرف عليهم -مالك- واحتكّ بهم في الجزائر، وسرد بعضاً من تجاربهم

التي تؤكد مبدأ التكافل والاتحاد ضمن انعزالهم في "فيتوهات" اجبارية، فمثلا في

بداية سنة 1941، طبقت حكومة فيشي Vichy سياسة Le Numerus Clausus

(حيث منع اليهود من ممارسة مهنة التدريس، واستبعد الطلاب اليهود في الجزائر

من المدارس و الجامعات) فطرد أكثر من 20.000 تلميذ من التعليم العمومي

فانتظم المجتمع اليهودي لمواجهة هذا الوضع، باللجوء إلى التعليم الخاص - في

البيوت- حيث تجنّد الأطباء، المهندسون والمحامون للقيام بهذا الواجب، ولم يفوت

الأطفال اليهود درساً واحداً من مقرراتهم المدرسية في حين لم يحرك المجتمع الجزائري ساكناً.¹

لم تكن نظرة مالك بن نبي لليهود مبنية على أساس الإعجاب و الإشادة بل تحدّث عنهم من باب الاعتبار والمقارنة، فكثيراً ما استحضر مالك صورة المجتمع العربي و الإسلامي في مواجهة المجتمع اليهودي.² و أظهر العديد من الفروقات التي مكّنت اليهود من إقامة دولة متطورة في قلب الوطن العربي ولكن «يا للويل !- في تلك الفترة العصبية من تاريخ الأمة الإسلامية- كان عبد الله إمبراطورية، وفاروق⁴ يريد الخلافة».⁵

في فترات لاحقة، لم يخف مالك موقفه الرافض لأبعاد إسرائيل كدولة، قامت على أنقاض شعب عربي بريء « فالصهيونية لم تكن تريد فحسب كسب جولة بل كانت تستهدف على الخصوص تحقير الجانب العربي «⁶ ثم انتقلت من درجة التّحقير إلى الإبادة و التّهجير بأساليب دولة استعمارية عظمى ف «الاستعمار يوظّف من يضع توقيعه على أعماله، وموظفه في الشرق الأوسط هو إسرائيل الذي يوقع على كل عدوان في مكانه».⁷

¹ - Nouredine Boukrouh : « laconisabilité » pensée de Malek Bennabi www.oumma.com .

² - ينظر: مقال "عشرون سنة من بعد" الثورة الإفريقية، عدد 220، ماي 1967.

مقال "ثمن الوحدة العربية" الثورة الإفريقية، العدد 226، جوان 1967.

مقال "لحظة لفلاس" الثورة الإفريقية، عدد 227، يونيو 1967.

³ - عبد الله الأول بن الحسين بن علي الهاشمي (1882-1951): ملك و مؤسس المملكة الأردنية الهاشمية.

⁴ - الملك فاروق (1920-1965): آخر ملوك المملكة المصرية، و آخر من حكم مصر من الأسرة العلوية، استمر حكمه ستة عشر سنة، إلى أن أطاح به الضباط الأحرار.

⁵ - مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2، 2002، ص 108.

⁶ - نفس المصدر ، ص 108.

⁷ - نفس المصدر ، ص 115.

إثر تعمّقه في دراسة شخصية اليهودي، وولوجه تدريجياً الميدان الخفي، و الجانب السري لهذه الشخصية، خلص بن نبي إلى أنّ اليهودي « هو المحرك الخفي للحروب الصليبية، و الاستعمار، مروراً بمحاكم التفتيش ¹ » فاليهودي هو الفاعل الوحيد، فلم يكن المسيحي « سوى أداة، رغم بعض وعيه، فهو إنسان يحمل حقيبه ويذهب كلّ صباح إلى مكتبه، إنسان يحمل مزودته ويذهب إلى مصنعه، خدمة لأغراض إسرائيل في هذا العالم ² » حتى الشعارات التي تنادي بها بعض التيارات الداعمة للشعوب المغلوبة كالأحزاب الاشتراكية يتبرأ منها مالك بعد أن سار في نهجها لمدة عشر سنين لأنّه أدرك أنّ «الوطنية الاشتراكية أدّت إلى تكريس المبتغى اليهودي المرسوم منذ ألف سنة بإنشاء نزعة توحيدية أوروبية وسيادتها على العالم المستعمر» ³.

إن الأسلوب الرياضي الذي ميّز قراءة مالك بن نبي للأمور، و عبقريته الدقيقة في التحليل أمران ساعدها على التعرف العميق و المبكر على "الآخر" وبالتالي التخلص من عقدة النقص أمامه لغة وثقافة وعلماء، و محاولة القضاء على مركب العظمة لديه، ليتحقق بذلك أول شروط الإقلاع الحضاري .

¹ - مالك بن نبي: العفن، ص 80.

² - نفس المصدر، ص 80.

³ - نفس المصدر، ص 82.

2 مالك بن نبي و جدليته : حوار الحضارات و التعايش السلمي

اختلفت الشعوب و الأمم، وتعددت زوايا الاختلاف حسب أساليب العيش و التفكير و التدبّر.

إنّ محاولة إزالة هذه الفوارق، والسّعي إلى توحيد الرؤى و الانتماءات

ضرب من المستحيل بل تعدّ على قانون إلهي يقتضي التّنوُّع و التّغاير « وَلَوْ

شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ».¹

نتيجة للتّحوّلات التي شهدتها العالم إبان القرن العشرين الميلادي، ومع

ظهور الصراع بين المعسكرين الشرقي و الغربي و الهلع النّاجم عن مشاعة

القنبلة الذرية بين المعسكرين، ظهرت جملة من المصطلحات المثقّلة بالإيحاءات

الأيديولوجية و العقائدية؛ كمصطلح أو دعوة "حوار الحضارات" بين الشرق

و الغرب كمفهوم للتفاعل من أجل التّقريب بين الفرقاء الذين ينتمي كلّ واحد منهم

إلى ثقافة وحضارة مختلفة، بغرض التعاون و تبادل المصالح على أساس الثقة

و الاحترام المتبادل، ولقد أضحي مشروع الحوار الحضاري مطلباً عالمياً بل

« مطروحاً بقوة على جدول أعمال الكثير من اللقاءات الدولية الثقافية و السياسية

و أيضاً الاقتصادية لا سيّما بعدما أعلنت الجمعية العامة للأمم المتّحدة عام

2001 عاماً للحوار بين الحضارات. وكرّس منتدى دافوس الاقتصادي العالمي

قبلها جلسة خاصة في جانفي 2000م لتناول موضوع حوار الحضارات».²

يعدّ "روجيه غارودي" المفكر الفرنسي، من أكبر المتبنّين لفكرة "الحوار

الحضاري" من أجل إحداث تفاعل إيجابي بين الشعوب و الحضارات المختلفة من

¹ - سورة هود: الآية 118.

² - الزهراء عاشور: حوار الحضارات و إشكالية الأنا و الآخر في الفكر العربي و الإسلامي المعاصر، مركز آفاق للدراسات و البحوث، المملكة العربية السعودية، عدد 2012/01/03.

أجل فهم أعمق للآخر، وتقبل أفكاره الدينية والسياسية و... على عكس ما ذهب إليه "صموئيل هنتغتون" في "صدام الحضارات" من أنّ الصراع بين الأمم قدر حتمي يتواتر في عبثية لا تنتهي أبداً.

كما نجد مصطلح "التعايش" الذي يدور معناه -هو كذلك- حول فلك

«التقارب و التقاهم بين الأديان والثقافات و الحضارات، لأنّ هذا المصطلح يحمل في طياته الاعتراف بالآخر المقابل و المخالف في الآراء و المبادئ و المعتقدات و إمكانية العيش معه في مجتمع واحد وعلى أرض واحدة، و الاعتراف له بحريته الدينية و المدنية و السياسية، لا يخرج التعايش بين الحضارات عن هذا الإطار العام».¹

أمّا مالك بن نبي فيظهر تحفظه جلياً من مبدأ الحوار أو التعايش مع الحضارات الأخرى لاعتقاده أنّ فكر السيطرة و الاستعمار ما فتى يمثل منطق الدّول الغربية، خاصة بعد أن أصبح البترول ثروة هامة في اقتصاد الكثير من البلاد الإسلامية، فهو يدعو إلى «تشاركية قيمية، تبرز فيها قيم السّلام و التعايش كقيم معدّلة لوجهة العالم، وهو الإسهام الذي يقدمه محور طنجة جاكرتا الذي يمثل مجموع قوى الشرق».²

كما يدعو -قبل التّحاور و التعايش- إلى أن يتخلّص العالم الإسلامي خاصة «من القابلية للاستعمار، ومن الاستعمار وهو واجب عليه، حتى يحول

¹ - مولدي الساكري: حوار الحضارات، المبادئ و الأهداف، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، إيران، عدد 2015/07/23.

² - يوسف بوراس: الفكر السياسي عند مالك بن نبي، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 247.

بين " تعايش " الدّول الكبرى، وبين أن يأخذ هذا التعايش اتجاه "استعمار مشترك"

بالنسبة للبلدان المتخلفة».¹

لهذا يرى بن نبي أنّ الحوار الناشئ بين الغرب و الشرق لابدّ أن يكون حوار النّد للنّد

فلم تعدّ الشّعوب الأفروآسيوية نموذجاً للرضوخ و القابلية للاستعمار، بل إنّ دخولها مسرح

الحوار «قد أعاد الازدواج الجغرافي السياسي بطريقة معينة، ولكن في نفس الوقت أنتت هذه

الشعوب معها بمبدأ تركيب للعالم وبإمكانيات تعايش جديد يحمل بوضوح طابع عبقريتها.

أعني الشروط الأخلاقية لحضارة لا تكون تعبيراً عن القوة أو الصناعة «.² بمجرد تلاشي

عقدة " الشعور بالنقص والدونية" و التّحلي بالأخلاق العالية، سترتفع مقاييس الحوار إلى

مستوى تتغيّر فيها معاني القوة و فلسفتها و لكن كيف يتحقق هذا في عالم مادي لا يؤمن

إلى بقوة السلاح ؟

لم يعارض "المهاتما غاندي" الاستعمار الانجليزي بنفس قوة السلاح المتطوّر الفتاك

بل بقوة جديدة استقاها من مبادئه و قناعاته هي قوة "عدم العنف"، وبهذه القوة لم يحزّر

"المهاتما" الهند فحسب، بل إنّّه قد أقرّ قانوناً سياسياً قائماً على قيم أخلاقية جدّد لها قيمتها

المنقصة بسبب حضارة منحت الأولوية للقوة المجردة.³

لإثبات نظريته و تأكيدها، يطرح بن نبي نموذجاً آخر كسر قاعدة «أنّ

الأكثر مالا هو حتما الأكثر قوة « حين اضطلع الفقراء الأميون، في عهد رسول

الله - صلّى الله عليه وسلم - بمهمة إنقاذ الإنسانية دون مركب نقص، لماذا ؟

¹ - مالك بن نبي: الفكرة الأفريقية الآسيوية، في ضوء مؤتمر باندونج، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1981، ص 232.

² - نفس المصدر ، ص 54/55.

³ - نفس المصدر ، ص 53.

« لأنّ الإمكانيات الحضارية المتكدّسة أمامهم في فارس أو في بيزنطة، أو في روما لم تفرض عليهم النقص، وبعبارة أخرى لم تبهرهم، كانوا يشعرون أمام الإمكانيات الحضارية المتكدّسة بإرادة حضارية تفوق كثيراً ما تبقى منها لدى المجتمعات المتحضرة في ذلك العصر...»¹

لذلك من أجل أن يتمّ السّلام العالمي و تتعايش الحضارات فيما بينها يشترط مالك أن تتوافر شروط الإقناع و الاقتناع، التي لن تتحقق إلّا إذا حصل:

- تغيير في داخل المسلم و في محيطه الخاص و العام من خلال يقظة اقتصادية، يعي من خلالها المسلم أنّه صاحب الأرض المنتجة للمواد الخام، فهو المنبع وليس التّابع.

- يقظة سياسية تتلاشى بعدها القابلية للاستعمار
- يقظة نفسية، ثقافية، يتمكن المجتمع المسلم من خلالها من طرح مشكلاته بمنطق البقاء ثم الوصول إلى أعلى مستويات الحضارة.²

¹ - مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، سورية، 2006، ط2، ص 180.

² - نفس المصدر، ص 183/184.

1 موقف مالك بن نبي من:

أ. الاستعمار و التكيف معه

ب. القابلية للاستعمار Colonisabilité

• الاستعمار الاقتصادي

• الاستعمار الثقافي

2 موقف مالك بن نبي من الاستشراق: Orientalisations

3 موقف مالك بن نبي من الديمقراطية

4 نظرية الثقافة في فكر مالك بن نبي بين الهوية و الأزمة

5 المرأة في فكر مالك بن نبي

1. مالك بن نبي: الأنا و الآخر مواقف و آراء

شغلت فكر مالك بن نبي قضايا متعددة، خاصة تلك التي لها علاقة بأسباب الإقلاع الحضاري أو أسباب الفشل والتقهقر بالنسبة للعالم الإسلامي مقارنة بما حققه "الآخر" أو فشل فيه، متخذاً بذلك مواقف متباينة وآراء كانت ثمرة جهد ودراسة عميقين، الأمر الذي أهلها لأن تكون مرجعاً موثقاً به استشهد بها العلماء والباحثون في مختلف ميادين العلوم.

أ. موقف مالك بن النبي من الاستعمار و التكيف معه:

الاستعمار لفظ محدث، مشتق من الجذر "عمر" واستعمره في المكان أي جعله يعمره.

والاستعمار مصطلح يرى البعض أنه ظاهرة سياسية، اجتماعية وثقافية تشمل إقامة مستوطنات أوروبية خارج أوروبا منذ القرن الخامس عشر، واستيلاء الدول الأوروبية سياسياً و اقتصادياً على مناطق واسعة من جميع القارات الأخرى بما في ذلك إخضاع الشعوب القاطنة فيها لحكم الدول الأوروبية واستغلال كنوزها ومواردها الطبيعية.

لقد ارتبط الاستعمار بالنهضة الأوروبية، وبداية عصر الاستكشاف، يؤرخ

لبدايته بتأسيس أول مستعمرة برتغالية سنة 1415 أما مالك فيصنف الاستعمار

إلى نوعين:

- أحدهما مؤقت، حين يخضع شعب ما إلى سيطرة جيش يفرض متطلباته من حيث الأمن والتموين في البلد المحتلّ، وذلك طبقاً لشروط يهيمن عليها قانون عسكري ينتهي نفوذه مع تصفية الوضع الحربي؛

• أما الآخر فهو عملية ضم نهائية، وإعادة بناء مجتمع جديد من الداخل، ذو

خصائص جديدة وُلد جزاء اندماج وانصهار الشعبين الغالب و المنهزم.

وقد يكون هذا الاندماج موفقا، رغم كل الفوارق الجوهرية بين الطرفين

ويمثل مالك بن نبي بذلك بالمجتمع (السلتي - الروماني) الذي اندمجت فيه

خصائص العبقورية الرومانية و السلتيّة على حد سواء. أما ما حدث في الجزائر

فهو خارج نطاق هذين الاحتلالين، لأن الاستعمار الفرنسي كما يقول مالك قد

أدخل في التاريخ وجهة ثالثة هي الاستعمار ذاته.¹

من أجل هذا تجاوز مالك اعتبار الاستعمار ظاهرة حديثة إلى تصنيفه

كسلوك بشري غير سوي بل هو "نكسة في التاريخ الإنساني، لأننا إذا بحثنا عنه

فسنجد أصوله تعود إلى روما، حيث وضعت المدنية الرومانية طابعها الاستعماري

في سجل التاريخ" ² لتتوالى وتتطور أساليب الرجل الأبيض في الهيمنة على خيرات

العالم ومصادر طاقته، واستغلال ضعف غيره من الشعوب، وتهميش دورها في

البناء الحضاري، حيث و " بعد حوالي قرن من الزمن حلّ البيزنطيون محلّهم في

استعمار هذا الإقليم وواصلوا نفس سياسة أسلافهم الرومان في ممارسة سياسة

الإرهاب و التقتيل، التشريد، التخريب للعمران والاقتصاد". ³ومن الخبايا التي

استنتجها بن نبي أنّ الاستعمار لا يستمد استمراره من قوة وتطور العتاد

العسكري، أو تفوق المستعمر العلمي و الصناعي بل من براعته ودهائه في

التفكيك والتخطيط الدقيق لأهدافه البعيدة، إذ ينتهي مالك إلى أن غاية الاستعمار

¹ - أنظر: مالك بن النبي: في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، 1991، ص 40/39

² - مالك بن النبي، وجهة العالم الإسلامي ص 108.

³ - يحيى بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1999، ص5.

أبعد من مجرد اختلاس الحقوق وسلب الأملاك، وفرض الضرائب بل غايته

المنشودة وخطته البعيدة المدى هي " تحطيم كل إرادة أو شبه إرادة تدفع الإنسان

المستعمر إلى التقدّم و الحضارة، ببرنامج يتضمن كل ما يتطلبه هذا التّحطيم

المعنوي، من تلويث أخلاقي يحطّ أولاً من قيمة الفرد الشخصية، ومن كفاءته".¹

فمنذ احتلال الجزائر سنة 1830، عملت فرنسا وفق منهجية مدروسة دقيقة المراحل

وفي جميع المجالات دفعة واحدة، ففي مجال التعليم مثلاً، انتهجت سياسة التجهيل ومن

فلت منها كان يوجّه بعد القسم النهائي إلى صناعة الخشب على وجه الخصوص، بينما

يوجّه الطالب الأوروبي إلى الصناعات الميكانيكية التي لها رواج ومستقبل، وهذا التوجيه

ليس من محض الصدفة كما يعلّل مالك وليس هدفه تكوين أطر من الفنيين في الوطن أو

قيادات صناعية أو نخبة مثقفة؛ وإنما الغرض منه تكوين نواة من البرجوازيين الصغار ذوي

الشهادات ويحضر على من أبدى رغبة أو استعداداً في اتجاه العمل الخيري أو النشاط

السياسي أو الاهتمام العلمي فإن الصّاعقة ستنزل عليه، وسيحيط به الجحيم من كلّ جانب

وهناك طرفة تصوّر هذا الجانب المظلم للمستعمر يوردها مالك بن نبي عن طالب جزائري

طلب وظيفة، فدُعي للمثول أمام الحاكم الفرنسي كي يختبره وبعد أن خرج من مكتبه سجّل

الحاكم هذه الملاحظة " فكر خطير، يعرف الحساب إلى العشرة ".²

¹ - مالك بن النبي: في مهب المعركة، ص 50.

² - أنظر نفس المصدر ص 43 - 49.

ومن الناحية الاقتصادية، عدّ مالك الوضع الاستعماري في الجزائر عملية حجر في صورة شركة مساهمة .

يحدد مالك معالم العلاقة بين المستعمر والمستعمر على أنّها علاقة حضانة يختلس فيها الوصي المستعمر مصالح القاصر المستعمر، تم يختلس ذاته، إذ يقرر أنه قاصر إلى الأبد، فلقد ارتبط الاقتصاد الجزائري بفرنسا فتحوّلت مثلاً مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة التي تميزت بإنتاج أجود أنواع الأرز والحبوب على المستوى العالمي إلى مغارس كروم استغلتها فرنسا لتحسين خمورها.

أما من الناحية الثقافية، فتعد فترة الاستعمار في الجزائر فترة صراع ثقافي بالدرجة الأولى نتيجة الأضرار الجسيمة التي لحقت بالذهنية الجزائرية وثقافتها الوطنية مثل:

-ارتفاع نسبة الأمية (أكثر من 80%)

-تحريف الدين وظهور إسلام مشوه غلبت عليه الخرافة والدروشة

-انتشار تقاليد وعادات و سلوكات دخيلة¹

أما في ميدان العمل، فالأولوية للأوروبي، أمّا الأهالي أو سكان البلد، فلا نصيب لهم إلاّ الأشغال الشاقة، كما تحوّل الحق في "الخبز" و الحق في العلم إلى منحة يمنّ بها المستعمر عليهم، فهو من يمتلك الآلات والمصانع بينما تعطى

¹ - أنظر، محمد العربي الزبيري: الغزو الثقافي في الجزائر 1962 - 1982، ط1، 1986، الجزائر المؤسسة الجزائرية للطباعة، 20، 22.

الأولوية في ميدان دفع الضرائب للمسلم، حيث تحولّ هذا الأخير في ميزان القيمة

إلى " شيء " ليس له الحق في المطالبة بالأجرة، العلم أو لقمة العيش.¹

جاء هذه المعطيات وغيرها، شكل مصطلح الاستعمار هاجسا قويا وقاسما

مشاركا في جلّ كتابات مالك بن نبي، لتتجلّى رؤيته لهذه الظاهرة، منفردة ومختلفة

عن غيره من مفكري عصره أو من سبقهم.

بنى مالك دراسته لظاهرة الاستعمار على دعامتين هامتين هما المستعمر

والمستعمر وكلّما وقف ابن مالك على أسباب احتلال وتخلف الأمم المستعمرة

أشار إليها بأصبع الاتهام لتقاعسها و تكيفها غير المشروط مع الواقع الاستعماري

بكل تبعاته الثقافية و الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية كواقع مسلم به ولا مفرّ

منه إلّا إليه، رافضا كذلك كل ما يحاول زعماء الحركة الحديثة خاصة، أن ينسجوه

حول القدرات العجائبية للمستعمر، فاتخذوا من قوته العسكرية الجبارة و التطوّر

العلمي الهائل ذريعة لفشلهم وعطلهم، في حين يعتبره مالك ضربا من التعلل إذ

يقصدون بذلك للهرب من مسؤوليتهم الحقيقية كما يلقي باللوم والعتاب على دعاة

الحركة الإصلاحية أولئك الذين لم يبحثوا مطلقا عن الأسباب الداخلية لعجزهم بل

اكتفوا بإسناد التبعية إلى السلطة الأجنبية² مقابل افتراض ضعفهم وهوانهم واعتقادهم

الراسخ بعدم القدرة على المواجهة، بل باستحالتها.

إلى جانب مركب الضعف وقلة خبرة القادة السياسيين بالأساليب

الاستعمارية في مجال الصراع الفكري لم يبرئ بن نبي بهذا ساحة المستعمر أو

يدافع عنه، على العكس من ذلك تماما، فكثيرا ما قرأنا له مستنكرا " جرائم "

¹ - أنظر: مالك بن النبي: في مهب المعركة، ص 138 - 139.

² - أنظر: مالك بن النبي: وجهة العالم الإسلامي ص 62.

الاستعمار وبشاعة معاملته، خاصة في الجزائر التي ما فتئت تعاني من آثار الاستعمار وتبعاته إلى يومنا هذا وفي جميع مجالات الحياة، فحين احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830 كانت هذه الأخيرة تنعم بخيرات تتيح العيش الرغد لجميع سكّانها إلا أننا نجد في نهاية الأمر - بعد فترة الاحتلال - " أن الشعب الفرنسي يصل وحده إلى عتبة العهد الذري، ونجد الشعب الجزائري في قافلة المتخلفين بعيدا عن جبهة التطور العالمي، لم يخرج بعد من مرحلة الأمية"¹.

إلا أننا نجد بن نبي في أماكن أخرى ينطلق من رؤية متميزة وموقف تحليلي متفرد، فبالرغم من انتمائه إلى وطن رزح طويلا تحت نير الاستعمار و التخلف. فاجئنا بن نبي، وبدا غريبا ما كتبه عن أيادي المستعمر البيضاء و إيجابيات تواجده في الدول المستعمرة التي سلب خيراتها واستعبد أهلها وعمل بكّد على تجهيله و تفكيره وتخلفه، فنجده يدعو إلى الرؤية وعدم التسرع في الحكم على المستعمر واعتباره " شرا كلّه " بل إن خيرا كثيرا قد حقّقه الله على يديه من حيث لا يعلم " فإن كان بطشه انتقاما، لقد كان في طياته رحمة، ولنتأمل، من الذي بعث العالم الإسلامي من نومه؟ من الذي أيقظه منذ خمسين سنة تقريبا؟ من الذي قال له قم؟ إنه الاستعمار".² الذي تحوّل حسب مالك وتنامى إلى أن أصبح قوة طاغية، فيشبهه تارة بالسوط الغليظ الذي أيقظ الشعب المستسلم ويشبهه تارة أخرى بـ " الديناميت " الذي نسف معسكر الصمت و التأمل وأحلام اليقظة ذلك أن الاستعمار، قد طغى وبغى واستبدّ وتعامل مع المجتمعات المستعمرة باحتقار وقسوة، متجاهلا معتقداتها الدينية ومبادئها الاجتماعية والثقافية، كالمجتمع

¹ - مالك بن النبي: في مهب المعركة، ص 42.

² - مالك بن النبي: شروط النهضة، دار الفكر ، سوريا ، 2006 ، ط6 ، ص 153.

الجزائري الذي يدين أغلب سكانه بالإسلام، هذا الدين الذي يحمل لواء الريادة في تكريم البشر و السمو بهم " ولقد كرمنا نبي آدم " شجعت معتقيه أن يكدوا في العمل ليضمنوا لأنفسهم " الحق الأدنى من الحياة، في مجتمع قاسي، لا يعول البتة صعلوكا يعيش على الغارة أو ولدا محظوظا يعيش على موارد أسرته، فقد زالت من الوجود كل إمكانيات التبطل منذ ذلك الحين".¹

إنّ الحكم التي استتبطها مالك واستخلصها، أن غدا ظلم وجبروت المستعمر حافظا حرّك وبقوة الجانب الروحي لدى المستعمر الذي ترسخ لديه احساسه العميق بأنه الكائن المكرّم من الله تعالى ولا ينبغي له الخضوع و الذلة لكائن بشري آخر دون الله تعالى، ليزلّ روحه و يستعبد جسده و يقضي على استعداداته للتطور " فنشأ - - الرفض - لهذا الواقع ثم نما شيئا فشيئا، ليتحول إلى ثورة حررت الإنسان حين واجه خوفه، وآمن بقدرته على التحرّر جزاء عودته إلى رصيده الروحي، ثم تحرّرت طاقاته وقواه الجوهرية، فتهاوت وتصدعت جلّ المعتقدات البدائية و الخرافات التي كبّلتها عن الإدراك وضاعفت خوفه و ارتياحه، فيستخلص مالك أنّ الاستعمار " قد أنقذ العالم الإسلامي من فوضى القوى الخفية التي يغرق فيها كل مجتمع يستبدل الخيال الساذج بالروح"² و الذي أيقن أن سياسة المستعمر

اتجاهه لن تتغير مضامينها أو أساليبها، فلم يعد من طريق أمامه سوى رفع التحدي و الثورة على الاستعمار. وهي مرحلة أسماها بن نبي بمرحلة تلاقي أوروبا بالعالم الإسلامي حيث أدرك الإنسان المسلم حالة البداوة المتخلفة التي يعيشها بالمقارنة مع حياة الأوروبي وهي تماما لحظة إدراكه لقابليته للاستعمار.

¹ - مالك بن النبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 48.

² - مالك بن النبي، نفس المصدر، ص 47.

ب. موقف مالك بن نبي من القابلية للاستعمار Colonisabilité :

تمخّض عن بحث بن نبي المطوّل لظاهرة " الاستعمار " ماهيته، أبعاده وتبعاته (سواء للمستعمر أم المستعمَر) وعن تجربته الحقيقية، ومعايشته اللّصيقة بالاستعمار الفرنسي للجزائر، تصدّيه بالدراسة الجادّة إلى مبدأ " القابلية للاستعمار " وتقصّيه لجذور الحركة الاستعمارية التي يحسبها سببا وجيها للوجود الاستعماري وعائقا جوهريا في طريق تحرر وتطور العالم الإسلامي.

فما هو المقصود تحديدا من القابلية للاستعمار؟

وهل هو مبدأ سابق للاستعمار أم لاحق به؟

إن القابلية للاستعمار مفهوم جديد جذاب، ابتكره مالك بن نبي، وناقش حيثياته في كتابه " شروط النهضة " حيث خلص إلى تصوّر آخر، مخالف لما سبق التواضع عليه، فأحدث هزّة عنيفة لمفاهيم ظلت ثابتة المعالم لسنوات طويلة فغدّت بهذا « القابلية للاستعمار » فكرة انقلاّبية تحمل فكرة القلب والانعطاف مئة وثمانين درجة في تفسير الأحداث، فلقد كنّا غارقين في العداء للاستعمار وكراهيته، وتحمّله لكلّ المصائب التي نعانىها، فجاء هذا الرجل وطرح تصوّرا آخر للمشكلات¹ لا من أجل الدراسة والتحليل فحسب، ولكن من أجل إيجاد الحلول الممكنة للخروج من حدود هذه الأزمة العويصة فاختر قانون

«السبب

و أثره « ليرى أن الأثر هو الاستعمار وسببه هو القابلية له، ومتى رغبتنا في التحرّر من الأثر، وجب التحرّر أولا من السبب الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالذات

¹ - أنظر : jawdatsaid.net/index.php يوم: 2012/02/05.

المستعمرة أكثر من ارتباطه بجانب قوتها أو ضعفها في المجال العسكري أو الاقتصادي، بل حتى قبل وقوعها في قبضة الاستعمار، الذي لا يرجع بدوره كواقع بالضرورة- إلى قوة المحتل وضخامة عتاده العسكري، بل الخل - حسب مالك - في الذات المستعمرة التي تشبعت بروح الانهزام و الخنوع، وهذا ما يلقبه مالك بالعامل الداخلي المستجيب للعامل الخارجي أي الاستعمار، الذي سيصبح التملص منه فيما بعد مستحيلاً، مما يسهل مهمة المستعمر، وييسر له الأمر.

فلاستعمار إذن حسب بن نبي « ليس سوى نتيجة القابلية للاستعمار، لأنه يدلنا على التطور الاجتماعي الذي أوجد الكائن الذي يمكن استعمار هذا الكائن الذي لا يدرك قابليته للاستعمار إلا متى استعمر»¹.

و يعلل مالك لذلك بأن الاستعمار الفرنسي جاء إلى الجزائر، فوجد شعباً مثقفاً على مستوى تعليمي يفوق بأشواط المستوى التعليمي للجيش الفرنسي. وأن يُقهر شعب متحضّر من قبل شعب أقلّ تحضراً أمراً لا يدعو إلى الدهشة، إذا تذكّرنا ما فعله التتار ببغداد و دمشق.

و حين حلت فرنسا بالجزائر، تفتنت إلى هذا الشعور الداخلي الانهزامي الكامن في لاوعي الأهالي والمتوارث منذ عهد ما بعد الموحدين، فعمدت إلى الانتقاص من قيمتهم، وتحطيم قواهم الكامنة فيهم، ومن ذاك بدأ هذا الأسلوب ينفذ بطرق فنية، كأنه معامل جبري وضع أمام قيمته الاجتماعية.² هذا عن المعامل الخارجي أي " المعامل الاستعماري " وإن كان بن نبي لم يقلل من خطورته، أما ما هو أهم من ذلك هو ذلك الشعور الداخلي الذي يستتبط مفاهيم الدونية و الاستلاب

¹ - رشيد الإدريسي: من ضرورة تجاوز إنسان ما بعد الموحدين إلى ضرورة تحديث العقل العربي، مالك بن نبي، العائد، جمع وتقديم نور الدين خندوري، وزارة الثقافة، الجزائر، 2008، ص 272.

² - أنظر: مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 146.

والذي يظهر لدى المستعمر سواء تعرّض للاستعمار أم لم يتعرض له، وهو ما دعاه بن نبي بـ :

" معامل القابلية للاستعمار " وأوّل مظاهره هو قبول ضحية الاستعمار بلقب " الأهالي " ويدّشّه ذلك بحيث إذ لم نشاهد « خصيانا يلقّبون أنفسهم بالخصي، فقد شاهدنا مرارا متتفنين جزائريين يلقّبون أنفسهم بالأهالي »¹ والقبول بهذا الاسم هو القبول بالمفهوم الاستعماري عن الذات.

ومن أجل إثبات نظريته، وتحديد عميق لمصطلح "القابلية للاستعمار" وتوضيح حدود معانيه، وبعد إجراء تشريح مجهري دقيق لسيكولوجيا الاستعمار استدعى مالك بعض المفاهيم الأخرى فدرسها حسب دلالتها النفسية و الاجتماعية والتي لا تمتّ إلى المعنى القاموسي بصلة، وذلك من أجل رفع اللبس والتداخل وتمييز الفوارق: أولها: مفهوم " التبعية" ² الذي قد يتقاطع في المعنى ومصطلح " القابلية للاستعمار".

فحكف على دراسة نظرية " منوني" ³ الاستعمارية الذي يرى أن " مركب التبعية" يتكون مع الطفل ⁴ وينمو معه، فتؤدي سطوة الأب وجبروته إلى سلب شخصية الابن، فتتلاشى رغبته في تكوين إرادة وسلطة شخصيتين، ويفضل راضيا الاستسلام لسلطة العائلة خشية الضياع L'abond، ليسهل بعد ذلك تعويض هذه السلطة، بصلات جديدة يفرضها المستعمر في صورة "حماية" على البلاد المحتلة ثم يعقب مالك موضحا أن المجتمع "التابع" هو في الأصل مجتمعا متماسكا

¹ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 153.

² - نظرية اجتماعية، مفادها أن الفقر وعدم الاستقرار السياسي و التخلف في دول الجنوب يعود سببها إلى المسار التاريخي الذي حددته دول الشمال، غير أن النمو الاقتصادي الذي حققته بعض دول آسيا كالصين و الهند هدد سقوط هذه النظرية.

³ - منوني: فيلسوف وعالم إنثولوجيا فرنسي (1899-1989) و أستاذ محاضر، ركّز في محاضراته على العلاقات بين المستعمر والمستعمر، وفي عام 1945 أصبح رئيسا للمخابرات الفرنسية في جزيرة مدغشقر. صدر له عام 1950 كتاب " علم نفس الاستعمار " Psychologie de la colonisation وأعيد نشره عام 1984.

⁴ - أجرى دراسته على المجتمع الملغاشي.

علاقاته الأسرية وطيدة قوية، أما المجتمع "القابل للاستعمار" على العكس من

ذلك فهو مجتمع متفكك، صلاته وعلاقاته الأسرية منعدمة ومتحللة.¹

وثانيها: مفهوم "الغزو" أو "الاحتلال" الذي يراه مالك مغايرا في أبعاده

الاجتماعية لمصطلح "الاستعمار"، ويعلل لذلك بأن روما لم تستعمر اليونان

ولكنها غزتها، وإنجلترا استعمرت أربع مئة مليون هندي، كانت لديهم القابلية، ولم

تستعمر أيرلندا بل غزتها، واليمن السعيد التي لم تفقد استقلالها، لكنها كانت قابلة

للاستعمار، أي عاجزة عن القيام بأي جهد اجتماعي²، وسوريا التي تحررت تدين

بذلك لظروف خارجية، أكثر من قوة داخلية، وهي ولادة إسرائيل، فوجب أن يخرج

الفرنسيون من هناك.

و الفرق بين الغزو و الاستعمار أنه في « الأول يوجد مركب سابق مكون

من الإنسان و التراب والزمن، ولا يمكن معه استعمار الفرد، وأما في الآخر، فإن

جميع الظروف الاجتماعية الموجودة تدل على قابلية الفرد للاستعمار».³

تبعا لما سبق نستنتج أن القابلية للاستعمار وثيقة الصلة بالثقة بالنفس

الذكاء والطموح وهي قدرات نفسية عميقة ومؤثرة في تشكيل شخصية الفرد، إذ

متى ما توافرت مجتمعة لديه، تعذر بل استحالة ترويضه أو توجيهه أو قيادته إلى

أي اتجاه دون رضاه أو رغبة منه، خاصة في علاقته مع من هم أعلى سلطة منه

كالحكومات، بغض الطرف سواء أكانت حكومة بلاده أم حكومة استعمارية التي

¹ - مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص 29/28.

² - ينظر: مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، 2005، ط5، ص 33.

³ - رشيد الإدريسي: من ضرورة تجاوز إنسان ما بعد الموحدين إلى ضرورة تحديث العقل العربي، مالك بن نبي (العائد)، ص

يعدها مالك مجرد آلة اجتماعية تتغير تبعا للوسط الذي تعيش فيه، وتتنوع معه فإذا كان الوسط نظيفا، حرّا، فما تستطيع الحكومة أن تواجهه بما ليس فيه، وإذا كان الوسط منسما بالقابلية للاستعمار، فلا بد من أن تكون حكومته استعمارية .

كما حمل مالك الذات المستعمرة عبء القابلية للاستعمار، يستفزها بشدة ليحملها كذلك أعباء التخلص منه ومبادرة التغيير وهو ما يدعو مالك بـ " فعالية الفرد المستعمر في المجتمع" ضمن ما يمتلكه من وسائل أولية بسيطة، يستطيع من خلالها تغيير واقعه، واستعادة ما فقد، ويمثل لذلك بالشعب الألماني الذي وجد نفسه عقب الحرب « محروما من جميع أبعاده الأخرى وخاصة فقدانه لسيادته السياسية، بحيث لم يعد يملك لمواجهة مشاكله إلا عضلاته وأفكاره، أو بعبارة أخرى طاقته الحيوية، وثقافته».¹

إنّ الخروج من دائرة القابلية للاستعمار هو مسؤولية ومطمح الأفراد الواعين بثقل المهمة، والمتسمين بالذكاء والفتنة، والقادرين على الموازنة بين نجاعة منهجية التغيير، وملائمة التوقيت للقيام بالأمر الصائب، إذ كثيرا ما أدى الانجراف وراء حماسة التغيير إلى إتباع السبل الخاطئة، فيفشل الإدراك وتتعلّل المقدرة على التمييز بين ما هو مفيد وملئم في مرحلة زمنية ما وغير مناسب في مرحلة أخرى. فبدل أن يستفاد من جني ثمار التغيير يتعمق الشعور بتقبّل الواقع الاستعماري وصعوبة التملّص منه وهذا ما خلص إليه مالك من تتبّعه لمسار الحركة الإصلاحية في الجزائر، فيعيب عليها انخراطها المتسرّع في المجال السياسي، فأدت هذه النكسة، حسب مالك إلى عودة البلاد إلى الأفكار الوثنية بعد

¹ - مالك بن نبي القضايا الكبرى، ص 71.

أن ناضلت الحركة الإصلاحية طويلا من أجل تقويم اعوجاج الأفكار والمعتقدات

بحيث ذهبت جهود الإصلاح هباء وكأنها لم تكن إلا « دروشة لا تختلف عن

سابقتها إلا أنها تبيع بدل الحروز و التمايم حروزا في شكل آخر هي أوراق

الانتخابات والحقوق السياسية و الأمانى السابحة في الخيال».¹

وللمستعمر نصيبه في تحمّل بعض من أوزار القابلية للاستعمار و أوزار

استمراريتها حسب بن نبي الذي لم يبرئ كلية ساحة المستعمر ويعفيه من

مسؤولياته. بل يرى أن له دورا مساهما ومكملا في حدوث واستمرار هذه الحالة

فالاستعمار حسب مالك يستهدف في البداية تحطيم الطاقات النفسية وترويض

الفرد المستعمر وحمله على تقبل واقع أقلّ كرامة وعزّة، والعيش في كنف ظروف

تحت إنسانية ليضمن حتّى بعد رحيله المزعوم حاجة الآخر إليه.

أما النتيجة التي يريد ابن نبي التوصل إليها هي " أن العوامل الخارجية

المتتملة في الاستعمار نفسه حتّى من كانت تشكّل عنصرا أساسيا في فوضى

العالم الإسلامي، فإن العوامل التي تعوق أوجه النشاط في هذا العالم وتثقل من

وتيرة تقدمه، هي عوامل داخلية بالدرجة الأولى، وهي عوامل ناتجة عن القابلية

للاستعمار التي هي صفة جوهرية من صفات إنسان ما بعد الموحدين".²

و لقد تجسدت "القابلية للاستعمار" في نوعين من الاستعمار مازالا يلقيان

بظلالهما على سماء العالم الثالث بعد الحصول على الاستقلال العسكري وهما:

¹ - مالك بن نبي شروط النهضة، ص 34.

² - رشيد الإدريسي: من ضرورة تجاوز إنسان ما بعد الموحدين إلى ضرورة تحديث العقل العربي، ص 273/274.

• الاستعمار الاقتصادي:

شكل من أشكال الاستعمار في العصر الحديث، لم يندثر عقب التحرر من الاستعمار العسكري الأجنبي، بل نمت وتطور جزاء الصراعات الداخلية التي أدت إلى عدم الاستقرار السياسي الذي انعكس سلباً على الوضع الاقتصادي و الاجتماعي. إنّ الاستعمار العسكري حين رحل، خلف وراءه على سدة الحكم بعض الزعماء الذين كانوا أشدّ منه ظلماً وسيطرة، إذ يشير الخبراء إلى أن غياب الديمقراطية والمساواة، كانا من الأسباب غير المباشرة ولكن المؤثرة بشدة على تفشي حالة الفقر و الحرمان.

لقد نتج خلل في ميزان اقتصاد ما بعد الاستعمار السياسي، حيث استثار ربع سكان العالم بأربعة أخماس دخل العالم من الثروة المالية، فنجد ثلاثة أرباع العالم بما فيها دول العالم الإسلامي تعيش على خمس دخل العالم. أما من منظور مالك بن نبي فإن الفقر والضياع الذي يعيشه العالم الإسلامي ليس سببه فقط الاستعمار القادم من خارج الحدود بل استعداد هذا العالم لاستقباله، ومكونات ذلك الاستعداد. ويسأل مستفسرا : لقد غادر الاستعمار هذه الأوطان، فهل تغيرت أوضاعه الاجتماعية، الثقافية أو الإنسانية بطريقة جوهرية؟¹

وكثيرا ما استحضر الظاهرة " الألمانية " كدليل واقعي وملحوس على طاقة التغيير الكامنة داخل الفرد، إذ لم تستعد ألمانيا مركزها الاقتصادي فحسب بل لقد حققت الريادة في ذلك، بعد أن انطلقت من نقطة الصفر « فاقدة كل وسائل

¹ - ينظر مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 52.

الإنتاج الصناعي التي حطمتها الحرب، وما تبقى منها إلى يوم 8 أيار (مايو)

1945، نرى الحلفاء يفككونه وينقلونه خارج البلاد، طبقا لاتفاقية (بوتسدام) فبقيت

ألمانيا فاقدة كل وسيلة إنتاج صناعي، بل فاقدة سيادتها أيضا ومضطرة أن تعيش

على أرض فقيرة من الناحية الفلاحية، تزرع تحت أكبر احتلال عسكري في

التاريخ».¹

وانطلاقا من هذه الرؤية يرقى مالك بعالم الاقتصاد ليقس أهميته وخطورته

بالنسبة للمجتمعات في ميزان القيم، إذ لم يعد الاقتصاد مجرد إبرام صفقات أو

استقطاب رؤوس أموال بل هو « أحد مراكز التفكير، المركز الذي تلتقي فيه

الأفكار بحدّة، إمّا لأنها أفكار عملية تبحث عن سبل جديدة لتسيير الحياة المادية

أو أنها أفكار نظرية تحاول فهم الظاهرة الاجتماعية في ضوء الاقتصاد، أو أحيانا

لأنها هذا أو ذاك «² إذ يصبح اقتصاد أمة ما هو مقياس نموها، تخلفها أو تطورها

ويعرف ذلك حسب مالك من خلال الدّخل السنوي للفرد في العالم فإن كان دون

المستوى المقبول، انعكس ذلك بالضرورة على الحياة الاجتماعية للفرد، ويتجلى

ذلك من خلال انخفاض استهلاك الغذاء، وتدني الوضع الصحي والمستوى

التعليمي، وفقدان الضمانات لمواجهة الحالات الطارئة و المستعصية كالمرض

والبطالة وغيرها.

إلا أنّ مالكا يدعونا أن نتناول موضوع متوسط الدخل السنوي للفرد بطريقة

أخرى حين يذكر إحصائية لهيئة الأمم المتحدة (سنة 1967) ويركز على

الرقمين الخاصين بالولايات المتحدة أي 3020 دولار وبالكويت أي 3400 دولار

¹ - مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، ص 55.

² - مالك بن نبي: تأملات، ص 47.

ويشرح بقوله « إن متوسط الدخل في الولايات المتحدة 3020 دولار لا يخضع

لشروط خارجة عن الأرض التي تتمتع به، ولا عن سياستها ولا عن ثقافتها، ولا

عن كل الظروف القاسية مثل حرب عالمية فتتقطع كل صلاتها مع الخارج، فإنها

لا تفقد بذلك سوى 5% من إمكانياتها الاقتصادية. بينما كل الموارد التي يتكون

منها متوسط الدخل الفردي في الكويت هو تحت رحمة يد أو أيد في الخارج

تستطيع في كل حين، أن تغلق أو تفتح صنابير البترول أكثر أو أقل»¹.

ناهيك عن اكتشاف طاقات أخرى بديلة لا تتضب، قد تحلّ في السنوات

القليلة المقبلة محل البترول وتسلبه بعض مزاياه الاقتصادية.

نتيجة لهذا التقييم توصل مالك إلى تقسيم العالم إلى قارتين، قارة (العالم

الثالث) التي تمرّ على محور طنجة - جاكارتا وفي أغلبها هي مستعمرات سابقة

يعيش معظم سكّانها « ظروفًا اقتصادية واجتماعية سيئة كنقص التغذية و قلة

المياه الصالحة للشرب، وانتشار الأوبئة والأمراض المستوطنة والحرمان من الحدّ

الأدنى للتعليم فضلا عن الظروف الشاقة لعمل النساء و الأطفال، وتشير البيانات

الدولية إلى أن أكثر من نصف سكان العالم يعانون الجوع، ففي إفريقيا يموت

طفل من بين كل خمسة أطفال قبل بلوغ الخامسة...»².

وقارة يعيش سكانها حياة التطور والرّفاهية، وحقوق التّعليم منذ الحضارة

« وكذلك الضمانات الاجتماعية قبل الولادة، فتقدم للأم ما يمنح الجنين أفضل

الظروف، لذا تتحقق له نسبة من الحظوظ في التّعليم وفي الرّعاية الصحية بوصفه

¹ - مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، ص 51/52.

² - أحمد جمال الدين موسى: التنمية حق من حقوق الإنسان، ص 36.

طفلا، ثم في العمل رجلا، فوق 90% وهذه هي نسبة الأشياء في المحور

الشمالي¹ أو محور واشنطن -موسكو.

فشلت دول محور طنجة -جاكرتا من الاستغلال السليم لموارد المجتمع المادية

والبشرية، وأخفقت في تزويد مواطنيها بأسباب ومقومات الحياة الكريمة وتهيئة المناخ

لإحداث تنمية حقيقية²، فعادت الدول من جديد عن قصد وعقد نية إلى حزن البلد الذي

استعمرها سابقا وعملت جاهدة لكي تتخلص من سيطرتها العسكرية التي عوضت بسلاسة

بـ « سيطرة اقتصادية تخوله البقاء في مناطق نفوذه السابقة، بل تخوله بسط نفوذ جديد لا

يقابل بالرّفْض بل بالقبول والرضا و التعاقد³ وذلك بأساليب متنوعة كاستيراد وتبني بعض

نظرياته الاقتصادية، أو طلب المساعدة والدعم عن طريق الاستثمارات، المشاريع المشتركة

والقروض...

خلقت هذه العلاقات غير المتوازنة ما أسماه مالك بـ « الاستعمار

المشترك » وهو الصورة الجديدة للعلاقات بين العالم المتحضّر والشعوب المتخلفة

كشعوب آسيا و إفريقيا أو بين دول المركز ودول الهامش، إذ يتمّ كل تبادل بينها

على نحو استغلالي وتتمّ التعاملات بطريقة غير متوازنة تماما مما يجعل دول

الهامش في حالة تبعية مستمرة حيث:

1 -أن البلدان الفقيرة مجبرة على تزويد البلدان الغنية بالمواد الأولية وبالياد

العاملة الرخيصة.

¹ - مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 56.

² - بعد ظهور أنواع أخرى جديدة من النفقات الضرورية من أجل تحقيق التوازن الاجتماعي، كنفقات محاربة البطالة والفقر ونفقات توزيع الدخل القومي.

³ - مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، ص 97.

2 - أو أنها ممنوعة من الإنتاج الوطني للمنتجات مما يجعلها مجبرة على

اشترائها من الشركات الاستعمارية.

3 - أن البلدان الغنية وضعت مجموعة من الإكراهات القانونية والمالية

والفنية مما يجعل البلدان الفقيرة في تبعية.¹

فهي بدل أن تبني حضارة خاصة بها استسهلت جمع أكوام من منتجات

حضارة الآخر.

ما فتئت الدول المستعمرة -سابقا- تعاني إلى اليوم جملة من العوائق نتيجة

هذا الارتباط الاقتصادي المختل مع الدول المستعمرة -سابقا- منها:

1 - سلبت ثرواتها المعدنية وأنهكت أراضيها بزراعة المحصول الواحد.

2 - تحت شعار التجارة الحرة و الانفتاح، غزت السلع المصنعة أسواق

العالم الثالث وقضت على صناعته الخاصة.

3 - لقد حوّل استثمار رأس المال الدول المستقلة إلى دول تابعة للمركز

وهو أمر لابد منه طالما أنه يجب دفع الفوائد والأرباح، فإن الاستثمار يصبح أحد

قنوات نقل الموارد من المناطق الفقيرة إلى المناطق الغنية.²

و الدليل على ذلك، عُد البترول، وهو المحرك الوحيد لاقتصاد بعض دول

أفريقيا وآسيا منذ 1952 « في نظر واشنطن " محصولا استعماريا " تخضع سوقه

لتشريعات سرية تنظم علاقاته بطريقة خاصة مع البلاد المستعمرة المنتجة».³

¹ - <http://ar.wikipedia.org/wiki> نظر يوم 2013/06/24، 37:10.

² - أنظر: شارل عيساوي: تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1991 ص 154-155.

³ - مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، ص 63.

سيبقى الاستعمار الاقتصادي قائما ومستمر باستمرار المفاهيم المتوارثة

الثابتة التي تحسب عالم الاقتصاد عملية حسابية محضة، في حين ينهانا مالك

من أن نصنفه ضمن عالم الكميات ، عالم الكميات، وعالم الأرقام إلا في

الرتبة الثانية، أي بعدما تبعث فيه الإرادة الحضارية الحركة و الحياة. وإنما تتدخل

الكميات و الأرقام عندما يتطلب عمليات الانجاز، يتطلب انجازها إشرافا وتنظيما

ورقابة، أي بقدر ما يكتمل الإمكان.¹

• الاستعمار الثقافي:

هو ديمومة خفية للاستعمار، ووسيلة أخرى من وسائل فرض السيطرة

والوصاية على الأمم المتخلفة، و يخاله مالك أخطر أنواع الاستعمار، فهو يضمن

له التبعية، الولاء والاستمرارية فهو باق ببقاء القابلية للاستعمار، وتمكنها من

النفوس جيلا وراء جيل. لأنه كما يقال " الاستعمار كالقط، ترميه من الأعلى، على

رأسه ليموت فيسقط على رجليه يبحث عن طريق العودة. وبما أن الروح الوطنية

هي التي كانت سببا في خروجه من الجزائر، فإنه جند ما لديه من وسائل الإعلام

ومن أنصار كان أعدهم، قبل الاستقلال خاصة للقضاء على (الوطنية) كمفهوم

يوحد الصف ويحفز الهمم، ويساعد على محاربة التبعية بجميع أشكالها

وأنواعها".²

¹ - مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، ص 62.

² - محمد العربي الزبيري، الغزو الثقافي في الجزائر (1962-1982)، 1986، ص 42.

لهذا تنافست دول محور واشنطن موسكو فيما بينها للاستلاء على عناصر القوة، فقابلهم كما يرى مالك لم تعد ذات فائدة مستقبلية لحل المشاكل المتعلقة لهذا بدأت مبكراً في إعداد وزرع أطر كزعماء لثقافة الآخر ونسخة أخرى غير أصلية فأصبحوا مدافعين على هذه الثقافة الواردة، وممثلين غير رسميين لفكرها.

يشيد المؤرخون بذكاء " فرنسا " كدولة استعمارية، لم تشغلها شهية التّهب الاقتصادي عن السّعي بحكمة إلى بلوغ أهداف أخرى بعيدة المدى، وافرة العائد إذ عملت المدرسة الفرنسية بعناية على صنع ما يسمى بـ " النخبة " وهم مثقفون بذهنية استعمارية، يدينون بالولاء لفرنسا ويعملون بجد على نشر ثقافتها.

" إذ أن الاستعمار لا يكتفي بالقضاء على مصادر الثقافة الوطنية ووسائلها بل إنه بعد أن يتحقق له ذلك ينتقل إلى صنع مثقفين مستعمرين يتولّون نشر الثقافة الاستعمارية في أوساط الجماهير الشعبية. ولقد تمثلت هذه المرحلة في الجزائر خاصة بظهور ما يسمى بالنخبة التي تعلمت في المدارس الفرنسية وبواسطة اللغة تقمصت الشخصية الفرنسية وتبنّت أنماط الحياة الفرنسية واتّخذت لها سلوك وعادات وتقاليد الفرنسيين".¹

يلقبهم مالك بالمتعلمين المستعمرين الذين شجبوا جميع الروابط التي تصلهم بجذورهم.

ومن لم تستطع مدرسة فرنسا ترويضه وتغريبه، صنعت منه فرداً أقلّ فعالية إذ أن " المتعلم الجزائري الذي تمّ تشكيله على مقاعد هذه المدرسة، كان من النّاحية الاجتماعية أقلّ فعالية من زميله الأوروبي أو اليهودي، كما لو كان مصاباً

¹ - محمد العربي الزبيري: الغزو الثقافي في الجزائر، ص 18، 19.

بعامل معين من النقص".¹ وكلاهما عانى معضلة هي أهم مخلفات هذا الصراع

الفكري ألا وهي التخلف، ليس على المستوى الاقتصادي فحسب بل على مستوى

التعامل مع وسائل الإنسان الأولية أي التراب والزمن بصورة فعالة، " بحيث لا

يستطيع أن يستعمل من أجل إعادة بنائه إلا هذه الوسائل فحسب"،² إذ يستحضر

بن نبي قضية ألمانيا أو حسب تعبيره " المعجزة الألمانية " حيث يؤكد على

حدودها الثقافية التي وجدت ضمنها، ذلك أن من أعاد بناء ألمانيا بعد 1945

« هو الروح الألمانية روح الرّاعي والفلاح والعامل والحّمّال والموظّف و الصيدلي

و الطّبيب والفنان والأستاذ».

وبكلمة واحدة إن الثقافة الألمانية دون التباس، ودون تضيق اجتماعي أو

فكري لمعانيها هي التي أعادت بناء بلد "غوته" و "بسمارك".³

وبمعنى أدقّ، أن ما قامت به دول محور واشنطن- موسكو عامة، وفرنسا

خاصة في بلاد العالم الإسلامي هو عملية استيلاّب ثقافي غرضها خلق فرد بلا

فعالية أو فرد بلا انتماء في محاولة تلبس هوية " الغالب" تقطعت روابطه مع

أصوله.

كما لا ينفي مالك -عن الجزائري المستعمر- عدم تقطّنه إلى مشكل

" اللافعالية" عنده إذ يقارنه بنظيره اليهودي والذي تمّ تشكيله في المدرسة الفرنسية

نفسها لكنه يختلف عنه في هذا الأمر، ويذكر على سبيل التمثيل أنه قد أتيح

للصفوة المتعلمة وهم جماعة من الأطباء، والمحامين وبضعة أساتذة ومعلمين

¹ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص 74.

² - نفس المصدر، ص 81.

³ - مالك بن نبي، من أجل التغيير، ص 52.

جزائريين أن يكون لهم صوت سياسي خلال عهد الأمير خالد للمطالبة بحق الالتحاق بالمدرسة لكنه حق ظل مطروحا دائما بالرغم من أن هذه النخبة لم توفر لا من رصيدها الكلامي ولا من أزواد خبرها...¹

في حين واجهت النخبة اليهودية خطر الأمية، بأن يتطوع كل ذي علم بقدر ما عنده من علم فيقوم بحصته من التعليم الابتدائي أو الثانوي أو العالي.²

وهكذا أصبح كل بيت من بيت المتعلمين مدرسة في ساعات معينة، ولما وضعت الحرب أوزارها وأسفرت عن نتيجتها المعلومة وارتفعت القوانين الاستثنائية التي صاغتها حكومة "المارشال بيتان" ضد الأطفال اليهود، ارتفعت دون أن تحقق أغراضها في المجتمع اليهودي لأنه عرف كيف يتحصن ضدها.³

ومن الأساليب التي انتهجتها فرنسا من أجل تعطيل النشاط الفكري في البلاد المستعمرة بمختلف مستوياتها وطبقاتها، وخاصة في الجزائر، هو تهميش اللغة العربية والقضاء عليها تدريجياً، إذ أدركت بأنها ليست وسيلة للتواصل فحسب، بل هي كغيرها من اللغات السامية، كما يرى المستشرق ماسينيون "تمتلك تركيباً مزدوجاً: الأول هو ما سمح لها بتلقي الكتابات المنزلة، والثاني يتعلق نوعاً ما بما سمح لهذه اللغات، فيما بعد، أن تلحق وأن تقود كل الفكر الإنساني، وعلى الأخص الفكر العلمي، خلال مئات السنين".⁴

¹ - أنظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص 75.

² - أنظر: نفس المصدر، ص 75.

³ - مالك بن نبي: تأملات، ص 141.

⁴ - مالك بن نبي: من أجل التغيير، ص 61.

من أجل هذا استهدفت اللغة العربية وحوريت وفق خطة تعلمها أولا ثم

تعليمها بأسلوب استعماري مكرر فلقد عالج ماشويل - الذي كان متوليا كرسى اللغة

العربية في وهران - "موضوع اللغة و الاستعمار، وحاول إقناع قومه بضرورة تعلم

العربية تنازلا منهم لتعلم لغة المنهزم، من أجل المصلحة الاستعمارية فقط، وإلا

فإنّ اللغة الفرنسية هي لغة السيادة ولغة المنتصر".¹

ثم بدأت عملية تعليم اللغة العربية الفصحى في الجزائر موازاة مع اللهجة

العامة وهذا ما أطلق عليه اسم " كرسى اللغة العربية " ثم ما لبثت حركة التعليم

بالعامة أن توسعت وازداد الاهتمام باللهاجات الأخرى كالبربرية على حساب اللغة

العربية الفصحى.

كما بدأ تعليم اللغة الفرنسية في الانتشار عبر قرى الجزائر و مداشرها وكان

هذا بيت القصيد، « فلم يكن غرض الفرنسيين تعليم الفصحى، و لا

المحافظة على العربية، المكتوبة أو تنقيف أهلها، وإنما كان التعرف على

الجزائريين بوسيلة الاتصال الوحيدة بهم وهي العربية الدارجة، ثم العمل على نشر

الفرنسية بينهم ... لأن الجزائر لن تكون حقا فرنسية إلا إذا أصبحت فيها اللغة

الفرنسية هي السائدة «². وذلك لقناعتهم التامة أنّ اللّغة هي هوية قبل أن تكون

أداة تواصل، فاستغلّوها من أجل إتمام مشروع الإدماج والتّصفية التامة للذّات

العربية المسلمة، إذ كان غرضهم من البداية هو " إحلال النّظم الفرنسية محل

النّظم الإسلاميّة القائمة وجعل اللّغة الفرنسية هي اللغة السائدة، ومن ثم كان

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص 44.

² - نفس المصدر، ص 17.

هدفهم هو الوصول إلى نقطة الاندماج حين يصبح المجتمع الجزائري مجتمعا

متفرنساً لغة وديننا و نظاماً".¹

ولقد نجحوا نوعا ما في تحقيق هذه الغاية و " صارت العربية أمرا غريبا في

إدارتنا وفي سائر دواليب الدولة حتى أصبح ذو الثقافة الوطنية يشعر بالغربة

و يُنعت بالأصبع على أنه ممثل للتخلف والرجعية".²

وهذا يلخص حادثة تعرض لها بن نبي، وحزت في نفسه ليكتب مقالا

يشجب فيه هذه الظاهرة.³

وذلك حين زار أحد مكاتب البريد وكلما حدث الموظف الجالس وراء النافذة

بلغة عربية أجابه هذا الأخير باللغة الفرنسية، وما أوجع قلب بن نبي وآلمه، يقينه

بأن الأمر لا يقتصر على هذا الموظف البسيط، بل يتعداه إلى رؤوسيه.⁴

وبعد التمكن من شل فعالية اللغة العربية، أوغل الاستعمار إلى عمق الحياة

العقدية للبلاد الاسلامية، وشنّ ضدها حربا، غرضها الأول و الأخير " أن يترك

في ميدان الثقافة في العالم الاسلامي جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب

في أرجائه عقولا لا تدرك إلا ما يريده لها هو أن تعرف فكانت جرائمه في تحطيم

أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلا

بمثال".⁵

¹ - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ص 197.

² - محمد العربي زيبيري، الغزو الثقافي في الجزائر، ص 26.

³ - Voir : Langue Et Culture, Révolution Africaine, N°33, N° 273, Du Gaun 18 Mai 1968.

⁴ - أنظر: مالك بن نبي، من أجل التغيير، ص 59.

⁵ - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، ط9، 2009، ص 21.

2 موقفه من الاستشراق Orientation:

مفهومه:

الاستشراق تيار فكري مهمته إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، حضارته، ديانته آدابه، لغاته و ثقافته. و لقد اعتبره البعض علما قائما بذاته، انقسم فيما بعد إلى " فروع و تخصصات مستقلة بعضها عن بعض و متعلقة بمختلف الحضارات، الخاصة بالشرق الإفريقي - الآسيوي و هكذا شهدنا ظهورا للاستشراق الصيني، والهندي، والدراسات الإيرانية والتركية والعالم السامي والإسلاميات والدراسات المصرية القديمة و دراسة إفريقيا و بقية التجمعات المناسبة أو المتعلقة بتقسيمات محددة تماما من النواحي اللغوية و التاريخية و العرقية للحضارات"¹.

اختلف المؤرخون في تحديد دقيق لبداية الاستشراق و يرجح أغلبيتهم أن بداياته تعود إلى خلافة الدولة الأموية في القرن الثاني للهجرة، و أنه نشط في الشام بواسطة الراهب John of Damascus " يوحنا الدمشقي" في كتابين الأول: " حياة محمد"، و الثاني " حوار بين مسيحي و مسلم".

انقسم الدارسون و المهتمون بالحركة الإستشراقية إلى اتجاهات متعددة، فلقد رأى البعض أنه حيلة و مؤامرة استعمارية تهدف إلى خدمة الاستعمار و تسهيل عمله من أجل التوسع و السيطرة الغربية على العالم الإسلامي، و أنه - أي الاستشراق - " الذات الغربية في زهوة تفوقها و قوتها، و سطوها، بينما تزيف ثقافة الآخر و الشرقي (خصوصا الإسلامي) و تحتقر ثقافته و لغته و ديانته و وجوده و تضعه خارج التاريخ، و خارج الفضاء الكوني المشترك الذي يناضل من أجله الجميع، مجردة إياه من القيم الإنسانية المشتركة"².

¹ - محمد أركون وآخرون: الاستشراق بين دعائه و معارضيه، دار الساقى، بيروت ، 2000، ط 2 ، ص 22.

² - حسن شحاتة: الذات و الآخر في الشرق و الغرب، صور و دلالات و إشكاليات، دار العالم العربي، القاهرة، ط 1 ، 2008، ص 28.

أما مالك بن النبي فيلجأ إلى تصنيف آخر يدمج فيه بين التاريخ و المنهجية، فيرتب

المستشرقين حسب السلم الزمني إلى:

أ - طبقة القدماء مثل: جريردوريياك و القديس توماس الإكويني.

ب - طبقة المحدثين: مثل كاره دوفو و جولد تسيهر.

و حسب الرؤى و المنهجية إلى:

أ - طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، أمثال دوري و آخرين

و هذا ما أسماه مالك بـ " أدب الفخر و التمجيد "

ب - طبقة المنتقدين للحضارة الإسلامية، المشوهين لسمعتها، كالدكتور

س. مرجليوت (1885-1940) بلاشير، ألفردجيوم....

و برهن على أن الاستشراق بنوعيه شر على المجتمع الإسلامي، لأنه

ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان، سواء في صورة المديح و الإطراء التي

حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر، و أغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده

في ماضينا، أو في صورة التفنيد و الإقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم

عن مجتمع منهار¹.

إن المديح و التمجيد لماضي المسلمين المشرق وسيلة من وسائل الاستعمار الذكية

للإلهاء العالم الإسلامي عن أهم مشكلاته، فالمستشرقون المادحون أمثال " رينو " الذي ترجم

جغرافية أبي الفداء، في أواسط القرن الماضي، و مثل " دوري " الذي بعث قلمه قرون

الأنوار العربية في إسبانيا، و مثل " سيد بيو " الذي جاهد جهاد الأبطال طول حياته من أجل

¹ - أنظر: مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 182.

أن يحقق للفلكي و المهندس العربي " أبي الوفاء " لقب المتكشف لما يسمى في علم الهيئة (القاعدة الثانية لحركة القمر)، و مثل "آسين بلاتئوس" الذي كشف عن المصادر العربية للكوميديّة الإلهية، لا شك أن هؤلاء العلماء كتبوا لنصرة الحقيقة العلمية، و التاريخ و كل ذلك من أجل مجتمعهم الغربي ¹، و هذا ما يؤكد مالك حين يتساءل عن جدوى التحدث إلى الفقير معدم، لا يجد قوت يومه عن أمجاد آبائه و أجداده و ثرواتهم الطائلة التي لن يفيدته تذكرها في شيء ويمثل لذلك بمؤتمر العمال الجزائريين بأوروبا الذي كان من مهامه بحث مشاكل العمال المغتربين الحالية، فإذا بالقائمين على المؤتمر يوجهون دعوة للكاتبة الألمانية " زيغريد هونكه " صاحبة كتاب " شمس الله تشرق على الغرب " لتقدم هذا الأخير إلى المؤتمر بكل ما احتواه من مدح و تمجيد للحضارة الإسلامية، فانقل المؤتمر بسلاسة من مجال المشكلات و حلها إلى أبهة و أمجاد الماضي الخلاب².

لم يطرب بن نبي لأسلوب المدح و التهليل، بل يرى أن الوجه الخلفي لهذا التيار هو الصراع الفكري الذي استطاع أخصائيو أدب المدح و الإطراء استغلاله بدهاء كوسيلة لتخدير المسلمين و صرفهم عن الواقع من خلال العزف على أمجاد ماضيهم، لإلهائهم عن حاضرهم و أنه " كلما لاحت في العالم الإسلامي أي بادرة ذات مغزى، و لو كانت لا تبصرها أعيننا، فإن مجهر أولئك الأخصائيين يلتقطها على الفور، ليجري عليها كل طرق التحليل، و إذا وجدوا فيها أي اتصال بحركة الأفكار في العالم الإسلامي، تجري عليها عمليات التشريح و تمر بكل أصناف التقطير، حتى يبقى في محتواها الاجتماعي أقل ما يمكن من عوامل التسيير لصلاحيتها و أكثر ما يمكن من عوامل التعسير و انتهاء

¹ - أنظر: مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 168.

² - انظر: نفس المصدر : ص 176 .

الصلاحية" ¹ ولهذا يؤكد بن نبي على العلاقة المتينة بين الاستشراق و الاستعمار فبعد

امتلاك الأمم الفقيرة، حسب "بوجو " بالسيف و المحراث، يأتي الامتلاك الآخر، الامتلاك

بالقلم و الكلمة.²

ما فتئ الاستعمار يتخذ أشكالاً متعددة، كالبعثية و البربرية والشيوعية و غيرها، من التيارات

السياسية، التي اعتبرها بن نبي مجرد وسائل إلهاء، لتشتيت انتباه المسلمين، و توجيه طاقاتهم للبناء

إلى السبل الخاطئة، ليتمكن المستعمر بعد ذلك من التغلغل و السيطرة على الموارد الحيوية و شل كل

حركة قد تؤدي إلى إنشاء حضارة و تطورها.

فالمستشرق، بحسب وجهة نظر مالك بن نبي وغيره من المفكرين الذين

حذوا حذوه " كان دائماً إمّا المستكشف الطليعي الذي يسبق الاستعمار ويمهّد له

الطريق، وإمّا الحليف و المستشار التقني للتاجر الأوروبي أو السياسي الأوروبي

أو المستغل الغربي، إنه أحد المسؤولين، إن لم يكن المسؤول الأول، عن الشرور

التي أصابت الشعوب الشرقية من جراء الاستعمار"³.

ومن بين أهم أدوارهم، التي تفاعلوا في تأديتها والتي تتوافق والخط

الاستعماري:

• العمل على الحطّ من قيمة وكرامة المسلمين، وهي نافذة اعتقد مالك بن

النبي أنّها مكان عبور الاستعمار إلى قلب الأمة الإسلامية ليتسلل إلى

مكامن القوة فيها، متى ما تمكّن منها الشعور بالدونية و الضعف

¹ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص 174/175.

² - انظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص 36 .

³ - محمد أركون وآخرون: الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، ص 23.

«¹

فالمستشرقون كانوا " جنودا في الميدان " ولكن بلباس مدني

اختصاصهم كل ما يتعلق بالدين، الثقافة، الفكر، فهم خبراء في الفكر

و تاريخ الإسلاميين، مضطلعين على علم مناهج نفسية الشعوب، بارعين

في اللغة العربية و قواعدها.

• احتقار الدين الإسلامي، واعتباره ديناً بسيطاً بدائياً، يتسم بالعدوانية و التعصب.

• التشكيك في صحة النص القرآني، والطعن فيه، وكذا التشكيك في الرسالة

النبوية، واعتبارها من عمل مسلمي القرون الثلاثة الأولى، وذلك ليفقد

المسلمون القدوة في حياتهم، و الأسلوب التطبيقي السليم لأحكام الإسلام

فجهدوا " على أن يتخلّى الناس عن دين محمد المزيف كما يقول الأب

"بارجيس" والأسقف "باقي"، وكان رجال الإستشراق والاستغراب يتعاونون

على تحطيم اللغة العربية وإهمالها وإحياء العاميات و اللهجات المحلية"².

• العمل على نشر النصرانية بين المسلمين و الاهتمام باللهجات العامية

لطمس معالم اللغة العربية، وتمزيق وحدة المجتمع الإسلامي، فلقد عمل

الاستعمار الفرنسي في الجزائر-مثلا- بمعية المستشرقين على إنشاء معاهد عربية

-فرنسية- في باريس مهمتها" تعليم أبناء المخلصين لفرنسا، وإبراز الكرم الفرنسي

في مختلف المجالات حتى يصبح المعهد مشتهل فكري للتأثير الفرنسي في

الجزائر".³

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 41.

² - نفس المصدر ، ص 198.

³ - نفس المصدر ، ص 201.

• اعتبار أن النص القرآني لا يحتوي إلا على أفكار متفرقة بسيطة، مستقاة

من مصادر يهودية ونصرانية، وأن أصل الفقه الإسلامي هو الفقه الروماني.

تبعاً لمنهجية مالك بن نبي في التحليل الرياضي المنطقي العميق

للإشكاليات الحضارية، وقدرته على قلب الأمور واكتشاف إيجابياتها ودراساتها

بموضوعية وتفاؤل وعدم الاعتراف بمبدأ " هذا شر كله " يرقى -بن نبي- في

تحليل دقائق الاستشراق إلى الحيادية وأسلوب الرؤية المجهريّة المتبصرة، فيرى أن

سياسة التحقير والتصغير - بعد أن سلط الضوء على أسلوب المدح و الإطراء

للفكر والتراث الإسلاميين- هو الحافز والجانب الإيجابي الهام للاستشراق، فمتى

ما شعرنا بالدونية والتخلف عن الركب الحضاري وحاولنا التسلح بالعلم والمعرفة

وجب حينها " طرح مشكلة الإسلام والعلم في صورة جديدة تتماشى أكثر مع سموّ

الدّين ومنطق العلم" ¹ وبذلك يخلق مناخ عقلي جديد، يتبع روح المبادرة ويحفّز

الابتكار، ويسهم في تطوّر العلم، الذي لا يعدو أن يكون مجرد معلومات وطرائق

مؤدّية لاكتسابها وذلك وفق شروط نفسية واجتماعية كحرية الفكر والمعتقد، وعلى

سبيل الإيضاح والتمثيل يذكر بن نبي "غاليله" وكيف قوبلت نظريته عن دوران

الأرض بالرفض، بل وحكم عليه بالإعدام في مجتمع ضيق الأفق، سيطر فيه

رجال الدّين على العقول و النفوس.

ثم ينتقل إلى مرحلة ما بين اكتشاف النار، إلى اكتشاف الطاقة البخارية

صدفة على يد "دونيس بيبان" حيث تمتعت أوروبا آنذاك بمناخ عقلي جديد أتاح

لعلمائها فرص الملاحظة والفهم والتفسير. وهي نفسها الأجواء التي عاشها

¹ - مالك بن نبي: القضايا الكبرى: ص 182.

المجتمع الإسلامي حينما كان القدوة والنموذج حيث سمت روح التسامح والعفو على أساليب الإكراه والقمع ويمثل لنا بن نبي " بابن الراوندي"، وهو فيلسوف مجاهر بالإلحاد، عاش في أوائل القرن الرابع هجري فـ " نراه ينتقص من شخص النبي الأمي عليه الصلاة والسلام فيقوله في شأنه: "لقد تحجر عريضا ابن أبي كبشة حين ادعى أنه خاتم الأنبياء" والمشار إليه بإبن أبي كبشة معروف لدى الجميع ومع هذا لم نرى محكمة تفتيش تتعقد من أجل محاكمة وإدانة هذا التعدي البليغ على أكبر شخصية في الإسلام".¹

وبالتالي لا يفهم من هذا أن بن نبي ينكر إنتاج المستشرقين ويرفضه جملة وتفصيلا فهو يراه إنتاجا يجوز اعتماد قيمته العلمية، فأحيانا يستحق كل التقدير في بعض أصنافه مثل ما خلفه " سيديو" أو "غوستاف لوبون" أو آسين بلاتسيوس" - بالإضافة إلى طابعه العلمي، بطابع أخلاقي ممتاز لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود نعرف قيمتهم كعلماء.²

لكن هذا الجهد الضئيل - الذي قام به المستشرقون - لا يكاد يؤثر في

نهضة العالم الإسلامي في حين ما كتبوه وما نقلوه من علوم وفنون الأمة الإسلامية أيام ازدهارها " كان قطعا المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركة النهضة في أوروبا"³ ولغلق باب الجدل في هذه المسألة

وكعادة ابن نبي في بحثه عن أسباب تخلف الأمة وتعثّر نهضتها، فهو لا ينسبها للاستشراق أو للاستعمار بل إلى الشعوب الإسلامية نفسها التي طالما حثها دينها

¹ - مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 186.

² - أنظر: نفس المصدر، ص 194.

³ - نفس المصدر، ص 174.

على التسلح بالعلم، على أن يكون علما قائما على أسس من اليقين و الإقناع
العقلي، بحيث يغدو القرآن الكريم منهجا علميا وتربويا جديرا بالدراسة، دونما
الحاجة إلى أفلام المستشرقين، أنكروا ذلك أم ذكروه.

3 الديمقراطية في تصور مالك بن نبي:

تعود جذور مفهوم الديمقراطية إلى الأصول الإغريقية، والكلمة تتكون من

مقطعين، كلمة ديموس demos وتعني: الشعب وكلمة كراتوس crates وتعني:

السلطة أو الحكم، ويعرفها منجد اللغة العربية أنها " إحدى صور الحكم، تكون

السيادة فيها للشعب، حكم الشعب نفسه بنفسه وقوامها احترام حرية المواطنين

والمساواة فيما بينهما " ¹ غير أن مالك بن نبي يصنف الديمقراطية الحديثة ضمن

إفرازات العهد الاستعماري وأنها من بين المفاهيم المستوردة التي ورثتها الدول التي

خضعت، واحتكت بالدول الاستعمارية.

فهو لا يشك في قيمة المفهوم وضرورته في حياة الغرب إذ " جاءت

الديمقراطية المعاصرة كنتيجة لصراع تاريخي مرير بين الأغلبية وهي الشعب ضد

الأقلية ممثلة في الحكام المستبدين، المتحالفين مع الكنيسة وطبقة النبلاء

فالديمقراطية بديلا لكل أشكال الحكم التي سبقتها من تيموقراطية* وبلوتوقراطية*

وتيقراطية* ².

أما بالنسبة للمجتمع الإسلامي فلا يمكن أن ينسجم نظام " الخضوع للبشر " مع نظام أساسه

" الخضوع لله " أو كما قاربها بن نبي بين مفهوم سياسي يقرب " سلطة الإنسان " ومفهوم ميتافيزيقي

يقرب "خضوع الإنسان" إلى سلطة الله أي أن " الشعور الديمقراطي في أوربا كان النتيجة والمآل

*الديمقراطية: الحكم الإقطاعي.

* البلوتوقراطية Ploutocratie : مصطلح سياسي يقصد به حكم ذوي النفوذ والثروة .

* التيقراطية: نوع من نظم الحكم، يجمع فيه الحاكم بين سلطتين الدنيوية والروحية، حيث يستمد الحاكم سلطته مباشرة من الإله حيث تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين.

¹ - المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار الشروق، بيروت، ط1، 2000، ص 483.

² - بوبوز عبد الغني: الجذور الاجتماعية و الديمقراطية، دار قرطبة، ط1، 2009، ص 29.

الطبيعي لحركة الإصلاح والنهضة، فهذا هو معناه التاريخي الصحيح، ولكن هذا المعنى لا يفصل عن تاريخ أوروبا ليطبق على أمم أخرى¹ اعتنقت الديمقراطية من باب افتتان المغلوب بالغالب فحسب إذ أنها بعيدة عن جوهر شخصيتها، وفلسفة حياتها.

فلماذا هذه النظرة القلقة نحو الديمقراطية كمفهوم سياسي ومطلب جماهيري مقدس على مستوى الثقافات العالمية؟.

لماذا يقف مالك بن نبي موقف المشكك من تبني هذا المفهوم في المجتمع الإسلامي؟.

لم يرفض مالك بن نبي مفهوم الديمقراطية كمصطلح، وإن كان تعمق في تحليله كفلسفة ونظام حياة، فما هي حدوده من منظور بن نبي؟ وإلى أي حد يرى بن نبي أن الديمقراطية الغربية السياسية مكسب، نعمه لا تحصى؟ بداية، أكد مالك بن نبي أن الديمقراطية المعاصرة تتمحور حول حرية الانتخابات وتصورها من ثلاثة أوجه دون ربطها بأي مفهوم آخر:

1. الديمقراطية كشعور نحو (أنا)
2. الديمقراطية كشعور نحو (آخر)
3. جملة الشروط الاجتماعية والسياسية اللازمة لتكوين هذا الشعور في الفرد وتنميته.

لأن الشعور الديمقراطي في تصور المفكر، لا يقوم إلا على صرح هذه الاستعدادات النفسية كما أنه لا يمكن أن تتحقق الديمقراطية كواقع سياسي إن لم تكن شروطها متوفرة في بناء الشخصية وفي العادات والتقاليد القائمة في

¹ - مالك بن نبي: تأملات، ص 66.

البلد. ¹فهو نتاج تقدير مزدوج لقيمة الإنسان، تقديره لنفسه وتقديره للآخرين نتاج بدأ

في التخلق والنشوء خلال الحركتين التاريخيتين الكبيرتين: حركة الإصلاح وحركة

النهضة وهما كما يرى مالك أول تصريح بقيمة الإنسان الأوروبي في مجالي

الروح والعقل.

إذن فالديمقراطية حسب بن نبي " ليست كما نفهمها فهما سطحيا، عندما

نتناول معناها الدارج، أي في حدود اشتقاق المفردة، ليست مجرد عملية سياسية

عملية تسليم سلطات إلى الجماهير، إلى شعب يصرح بسيادته نص خاص في

الدستور".²

بل هي مصطلح عميق تكمن قيمتها في تحول الإنسان (الأوروبي وغير

الأوروبي) على مستوى الروح والعقل وتخلق قناعة أن الشعب، إذا اكتمل نضجه

العقلي والروحي، أمكنه أن يحكم، لهذا انتهج المفكر في تحليل المصطلح على

علم النفس وعلم الاجتماع.

أما عن البعد النفسي فهو عبارة عن الحد الوسط بين نقيضين: نفسية

وشعور العبد المُستعبد، ونفسية وشعور المستعبد.

والإنسان (الحر) الذي تتمثل فيه قيم الديمقراطية هو الحد الإيجابي بين

نافيتين، نافية العبودية ونافية الاستعباد.

ولهذا التطور ناحية شكلية تبرز القيمة الجديدة للإنسان الحر، فبعد أن كان

(Sujet) أي تابعا لمولاه؛ أسمته الثورة الفرنسية فيما بعد مواطنا (Citoyen) وبعد

¹ - أنظر: مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 137.

² - نفس المصدر: ص 143.

أن كان الفلاح الروسي يعرف باسم (موجيك) Moujik في العهد القيصر يأصبح

(الرفيق) بعد ثورة أكتوبر 1917.

وهذا هو المقياس العام الذي يقاس به أي تطور ديمقراطي، مهما كان موقعه التاريخي فكل تطور من هذا النوع في جوهره حسب تحليل مالك بن نبي تصفية، تخلص الإنسان الجديد من رواسب العبودية ومن نزعات الاستعباد، التي تمثل النقيض السلبي للشعور الديمقراطي.

فالديمقراطية إذن مفهوم لا يصوغه نص دستوري ولا يلغيه جبار مستبد، بل هو متأصل ومرتبط بشعور، تحدي عادات وتقاليد. و احساس الشعب بقيمة تتبع من داخله.

فإنجلترا، المملكة تنعم بحياة ديمقراطية دون نص يحميها، لكنها تستمد قوتها من أوضاع الشعب النفسية، أعرافه، عاداته وتقاليد، لهذا يأخذ بن نبي على بعض الدول الأفريقية الآسيوية استعارتها للمشروع الديمقراطي من بلاد ذات تقاليد ديمقراطية عريقة دون أن تصحبه الإجراءات المناسبة لبث ما يستعار في نفسية الشعب الذي يستعير.

ترتبط مرحلة التخلق والنشوء الديمقراطي في لحظة بدايتها بصورة شكلية بتعبير جديد أو شعار مميز لتقييم الإنسان ومنحه الحقوق السياسية اللازمة ليصبح "مواطناً" في الثورة الفرنسية و "رفيقاً" في الثورة الروسية. وطبقاً لهذا التقييم، ظهرت نماذج متعددة كالديمقراطية الغربية في أوروبا، والديمقراطية الشعبية في الشرق والديمقراطية الجديدة في الصين.

فهل توجد ديمقراطية في الإسلام وهو الدين الذي منح الإنسان كل الحقوق

السياسية المتاحة؟

يأخذ مالك بن نبي على المجتمعات المسلمة تبنيها، وافتتانها ببعض الأفكار الواردة

التي تمنح الفرد بعض الضمانات والحقوق السياسية والاجتماعية في حين شرع الإسلام (أهم

دستور ديمقراطي) دون نصوص قانونية محددة أساسه تكريم الإنسان ورفع قيمته فوق كل

القيم التي قد تمنحها إياه النماذج المدنية { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا }¹.

لا يتحرج مالك بن نبي من أن يتعمق في دراسة " ديمقراطية الإسلام " دون

أن يقف عند حدود الأسماء والمسميات، كما فعل بعض الإسلاميين المعاصرين

الذين رفضوا هذا المصطلح وقاموا باستبداله بمبدأ الشورى.

تجاوز مالك هذه المقاربة، غير أننا نستشف من قراءتنا لتحليله وتحديد

لزمان الفوضى الذي عمّ العالم الإسلامي في فترة (ما بعد الموحدين) أي بُعيد

تعيين معاوية لابنه يزيدا أميراً للمؤمنين دون شورى و هي المرحلة ذاتها التي

تعطلت فيها الديمقراطية عند المسلمين، أنّ الشورى غير الديمقراطية، فهي تبقى

قيمة أما الديمقراطية فهي آلية تطبيق؛ لهذا نجد قبل أن يتعمق في بحث

الديمقراطية في الإسلام، يؤكد أنه لا يقصد بدراسته « الزّمن الذي تحجّرت فيه

التقاليد الإسلامية وفقدت فيه إشعاعها، كما هو شأنه اليوم بصورة عامة، ولكن في

¹ - الإسراء الآية 70.

زمن تخلفها ونموها في المجتمع «¹، أي في زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعهد الخلفاء الراشدين.

من أهم النقاط التي يثيرها مالك ليؤكد -من خلالها- أصالة مفهوم

الديمقراطية في الإسلام مسألة "العبد" في المجتمع، التي أغفلتها ديمقراطية أثينا بحيث كان الرقيق دعامة النظام الاقتصادي ولأول مرة في التاريخ يُعني تدريجيا بتحرير الرقيق في المشروع الديمقراطي الإسلامي. كما يتطرق مالك بن نبي إلى أحد مبادئ الحكم الإسلامي والمتعلق بطاعة المحكومين لأولى الأمر، حسب ما ورد في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا }².

وإن كان هذا النص يقرّ امتيازات الحاكم إلا أنها امتيازات مقيدة بأحكام استقرت في ذهنية الحاكم والمحكوم في آن واحد، فحينما بويع عمر بن الخطاب وضّح حدود هذه الطاعة في خطبته المشهورة "من رأى منكم في اعوجاجا فليقومني .." واضعا بذلك حاجزا بين العبودية والاستعباد، وهي من لبنات الديمقراطية الإسلامية. ومن الحريات الأخرى التي كفلها الإسلام بصورة فعّالة وواقعية:

¹ - مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 150.

² - النساء الآية 59.

- حرية الاعتقاد { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }¹.

- حرية العمل والتنقل { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ }².

- الحرية الفردية، وحماية الخصوصية.

وبالمقابل حدّ حدودا تكفل مصلحة المجتمع القائمة على العدالة والمساواة

بين أفراد المجتمع -مسلمين وذميّين- مثل ذلك وصية عمر رضي الله عنه

للقاضي أبي موسى الأشعري حين قال له: " ساو بين الناس في وجهك ومجلسك

وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك".

وكخلاصة لما سبق يؤكد مالك بن نبي " أن الحكم الإسلامي ديمقراطي في

مصدره وفي عمله، كما قدّمنا، والإسلام يتضمّن كلّ السمّات التي تطبع

الديمقراطية السياسية التي تمنح الفرد مسؤولية في تأسيس الحكم والضمانات

اللازمة التي تحميه من جور هذا الحكم.

ولكن التجربة التي تجرى للديمقراطية السياسية في العالم منذ عهد الثورة

الفرنسية، تدل على ضعف حريات الفرد، في الواقع، عندما لا تمنحه في الوقت

نفسه الضمانات الاجتماعية التي تكفل حريته المادية".³

¹ - سورة البقرة، الآية 256.

² - سورة الملك، الآية 15.

³ - مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 156، 157.

ومن الأسس التي بنى عليها بن نبي: رؤيته:

- تقوم ديمقراطية الغرب على صراع الطبقات نتيجة الاختلاف بين القيم السياسية والقيم الاجتماعية، هذا الخل الذي تحدثه مصلحة الأقوى على حساب الأضعف.

في حين يقوم المشروع الديمقراطي الإسلامي على مبادئ عامة غايتها توزيع الثروة على الجميع، الأقوى والأضعف يتمثل ذلك بتقرير مبدأ الزكاة وتحريم الربا الذي يتيح السلطة التامة للاحتكار على التجارة.

4 - نظرية الثقافة في فكر مالك بن نبي بين الهوية و الأزمة:

أصل الثقافة في اللغة العربية مأخوذ من الفعل الثلاثي " تَقَفَ "، وتطلق في اللغة على معانٍ عدة: فهي تعني الحذق و الفطنة، والذكاء وسرعة التعلم وتسوية الشيء و إقامة اعوجاجه، والتأديب والتّهذيب، والعلم والمعارف، والتعليم الفنون.¹

وعند ابن منظور " تَقَفَ الشيء تَقْفًا، و تَقَافًا، وتَقُوفَةً، حذقة، ورجل تَقِفٌ

حاذق، فَهْمٌ و تَقَفْتُ الشيء: حذقته، و تَقَفُّهُ إذا ظفرت به قال الله تعالى: « فَأَمَّا

تَتَقَفُّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ».²

¹ - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج 1، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق،

1979، ص382.

² - سورة الأنفال: الآية 57.

وَتَقَفَ الرَّجُلُ ثِقَافَةً أَي: صار حذقاً خفيفاً، منه المثاقفة. وَتَقَفَ أَي: صار

تَقَفاً مِثْلَ تَعَبٍ تَعَباً أَي: صار حذقاً فطناً. وهو غلام لَقِنَ تَقَفَ أَي: ذو فطنة

وذكاء، و المراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه.¹

أما اصطلاحاً يرى مالك بن نبي أن الثقافة مصطلح حديث، وهو ناتج

عصر النهضة "عندما شهدت أوروبا في القرن السادس عشر انبثاق مجموعة من

الأعمال الأدبية الجليلة في الفن وفي الأدب وفي الفكر".² فاللفظ محدث شبيه

بمعنى Culture الشائعة في الأدب الأوروبي ومصطلح "الثقافة" يجمع

« معارف العلوم والآداب والفنون، يتعلمها الناس ويتتقنون بها، وقد تحتويها الكتب

ومع ذلك هي خاصة بالذهن «.³ وهذا ما يلخصه قاموس Larousse الفرنسي إذ

يعتبر الثقافة "مجموع النظم الاجتماعية ولمظاهر الفنية والدينية والفكرية التي

يتميز ويتحدد بها مجتمع عن غيره من المجتمعات".⁴

توصل مالك بن نبي، بعد قراءات متعددة، ومقاربات مستفيضة لتصورات

مدارس فكرية وفلسفية متباينة، تناولت المصطلح بالتحليل والدراسة، إلى أن الثقافة

ليست مجرد علم يلقن في المدارس ويقتبس من الكتب بل هي «الجو المشتمل

على أشياء ظاهرة، مثل الأوزان والألحان والحركات وعلى أشياء باطنة كالأذواق

والعادات والتقاليد. بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع

¹ - ابن المنظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2010، ص 19.

² - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط4، 2000، ص25.

³ - سلامة موسى: الثقافة والحضارة، مجلة الهلال، القاهرة، ديسمبر 1927، ص 171.

⁴ - Encyclopédie Larousse.

معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة

مجتمع آخر».¹

فالثقافة إذن هي التراث الفكري الذي يخص مجتمعا بعينه، تتوارثه الأجيال فتضيف إليه أو تنقص منه بحسب ما تعارفت واتفقت عليه، وبهذا يمكن أن نميز للثقافة عدة جوانب منها:

أ. الجانب المعياري: يشمل الدين، القيم الأخلاقية والأعراف

ب. الجانب السلوكي: يشمل العلاقات الإنسانية التي تربط بين الناس، ونظم

عيشهم، وأساليب تواصلهم كاللغة والفن و الأدب

ج. الجانب المادي للثقافة: كالمساكن و الملابس و وسائل النقل

لكن ماذا يحدث حين يزول الجو الثقافي و تتداعى عناصر الثقافة؟

ينطلق بن نبي في تفسيره لهذه الظاهرة المشكلة من ضرورة التزام مزدوج

بين الفرد و المجتمع، لا يُسمح بموجبه بأيّ نشوز في السلوك و لا انحراف في

الأسلوب. إذ يمارس المجتمع ضغطاً على الفرد، فيكون هذا الأخير قادراً على

مواجهة الخطأ وتغييره تبعاً للحديث النبوي الشريف « من رأى منكم منكراً فليغيره

بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

لكن متى تنشأ الأزمة الثقافية؟

يؤكد مالك بن نبي أنّه " كلما عمل المجتمع واجبه في السهر على سلوك

الأفراد، بدعوى الحرية -أو آية دعوة أخرى- وزال الضغط الاجتماعي، انطلقت

الطاقة الحيوية من قيودها، سواء أكانت هذه القيود مفروضة على أساس ديني أو

¹ - مالك بن نبي: تأملات ، دار الفكر ، دمشق 1986، ص143.

أساس دستوري، فدمرت كل ما يقوم على تلك الأسس سواء كانت دينية أو

علمانية، أي أنها تدمر البناء الاجتماعي.¹ فيصبح الفرد معطلاً غير فاعل وغير

قادر على النقد وتغيير المنكر ويتخلى المجتمع عن جل مسؤولياته، ويلجأ إلى

التفوق واللامبالاة. إذن، تنشأ الأزمة الثقافية حين يزول الالتزام بين المجتمع

و الأفراد وتتفكك مبادئه، فتتعدم فعالية الفرد على التغيير، ويظهر عجزه جلياً في

حل مشكلاته.

لا تقف الأزمة الثقافية عند حدود عدم الفاعلية واستحالة التغيير وحلّ

المشكلات في مساحة زمنية بعينها، بل تنمو هذه الأزمة شيئاً فشيئاً لتتوالى

النكسات سواء في الميدان الصناعي أو الزراعي أو الأخلاقي أو السياسي أو

العسكري، إلى أن يصبح الخروج من براثن هذه الأزمة أو تعديلها مستحيلاً إلاّ

بثورة ثقافية عارمة، كما يرى بن نبي، تكون بمثابة دفعة جديدة للحياة الاجتماعية

«مثل الدفعة التي أعطاها "ماوتسيتونج" للحياة الصينية تحت اسم " الثورة

الثقافية".

لم يكن للشعب الصيني غنى عنها لمواجهة أيّ واقع يواجهه من أجل

تعديله في الاتجاه الذي يراه».²

للخروج من الأزمة الثقافية، لابدّ من ثورة ثقافية لا تتطلب الكثير من

الحماس بقدر ما تتطلب الكثير من التفكير والتدبير لإعادة إخضاع سلوك الفرد

إلى مصلحة الجماعة، وإحلال الانسجام بين أفراد المجتمع الواحد، وإعادة ربط

¹ - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 91/90.

² - نفس المصدر، ص 91.

الصلات الاجتماعية بينهم، حيث يضمن للفرد عناية ورعاية المجتمع له، كما

يضمن للمجتمع عدم انحراف الفرد ونشوره عن قوانينه ونظمه.

وإذا تتبعنا آراء بن نبي عن الثقافة، نجده يؤسس لها بمبادئ لا تكاد تحيد

عنها أي ثقافة إذ أن الاختلاف في تفاصيل بناء الأمم والمجتمعات لا يرفع عنها

الخصوع لقياس هذه المبادئ:

■ المبدأ الأخلاقي أو التوجيه الأخلاقي:

لا يمكن أن تكون الثقافة حسب مالك بن نبي أسلوب حياة في مجتمع ما إلا إذا اشتملت

على عنصر الأخلاق إذ تعدّ الثقافة نظرية في السلوك و الأخلاق أكثر منها نظرية في المعرفة

فالعلاقة بين الأفراد لا تقوم في أيّ مجتمع دون أساس أخلاقي، وشبكة صلات ثقافية، التي هي في

الأصل تعبير عن العلاقات الشخصية في مستوى معين، لذلك لا يمكن لهذه الشبكة أن تتكون بدون

مبدأ أخلاقي، يضمن التماسك والانسجام بين الأفراد و المجتمع من جهة ويحميه من التفكك من جهة

أخرى، كما أنّ فعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بقدر ما يزيد فيها المبدأ الأخلاقي أو ينقص.

بل إنّ العلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع " هي في الواقع ظلّ للعلاقة

الروحية في المجال الزمني" ¹ إذ ارتبط المبدأ الأخلاقي بالدين في علاقة ضاربة

في القدم، فهو عنصر «يتدخل تدخلا مباشراً في تكوين "الأنا" الواعية عند

الفرد».²

لا يُعنى المبدأ الأخلاقي عند بن نبي بالأخلاق حسب المنظار الفلسفي أو

الاجتماعي، بل هو مبدأ هام تقوم عليه صلات الأفراد في مجتمع ما، وهو في

الأصل مرتبط بغريزة الحياة عند الفرد «والتي تتيح له تكوين القبيلة والعقيدة

¹ - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 72.

² - نفس المصدر، ص 57.

والمدينة والأمة، وتستخدم القبائل الموعلة في البداوة هذه الغريزة لكي تتجمع

والمجتمع الذي يتجمع لتكوين حضارة فإنّه يستخدم نفس الغريزة ولكنه يهذبها

ويوظفها بروحية خلقية سامية».¹

إنّ المبدأ الأخلاقي، مبدأ متغيّر غير ثابت، تحكمه عادات وتقاليد وأفكار

لكن رغم اختلاف تفاصيل بناء نسيج الأمم والمجتمعات، يظل للمبدأ الأخلاقي

صفة العالمية، فالبشر -على اختلاف انتماءاتهم- يشتركون في اعتناق قيم

أساسية بعينها كتحریم الجريمة والعنف وإذلال الغير.

يلح مالك بن نبي في كتابه "مجالس دمشق" على الاهتمام بالثقافة التي

تمنحنا الذوق المهدّب و الاحساس المرهف الجميل، القائم أساساً على قاعدة

أخلاقية متينة ليظهر ذلك من خلال الملابس والمعاش وأثاث البيت الذي يشمل

بالضرورة الجمال وتناسق الألوان والزّوايح والأشكال والأصوات، ليترجم ذلك عبر

سلوكنا حباً وخيراً إذ « أنّ الأفكار هي المنوال الذي تُنسج عليه الأعمال، وهي

تتولد من الصور المحسنة الموجودة في الإطار الاجتماعي، فتتبعكس في نفس من

يعيش فيه، وهنا تصبح صوراً معنوية يصدر عنها تفكيره ... فبالذوق الجميل الذي

ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الانسان في نفسه تزوعاً إلى الإحسان في العمل وتوخياً

للكريم من العادات».²

■ المبدأ الجمالي:

يعتبره مالك أهمّ مكونات الثقافة، وعنصراً ديناميكياً يحرك الهمم إلى ما

هو أبعد من مجرد المصلحة، كما يدرجه ضمن شروط الفعالية، فهو الإطار الذي

¹ - محمد محفوظ: النظرية الثقافية عند مالك بن نبي، صحيفة الرياض العدد 14176، الثلاثاء 17 أبريل 2007.

² - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 82.

تتكون فيه أية حضارة، لأنّ الفرد المتحضّر هو من يمتلك الذوق الجميل الذي

يجد في نفسه ميلا إلى الخير والفضيلة، لأنّ «الإطار الحضاري بكل محتوياته

متّصل بذوق الجمال ... فينبغي أن نلاحظه في أنفسنا، كما ينبغي أن تتمثل في

شوارعنا و بيوتنا ومقاهينا...»¹.

■ المنطق العلمي:

ويعبر عنه مالك بمصطلح آخر هو "الفعالية". ويقصد به « كيفية

ارتباط العمل بوسائله ومقاصده، وذلك حتّى لا نستسهل أو نستصعب شيئا دون

مقياس، يستمد معايير من الوسط الاجتماعي وما يشتمل من امكانيات...»².

إنّ النقص الذي يعانيه الإنسان المسلم لا يتمحور حول منطق الفكرة، إنّما

منطق الحركة والعمل، بحيث إذا اختلّ هذا المنطق تعرض المجتمع بأكمله إلى

العبث وتضييع مصالحه.

يمثل مالك بن نبي لهذا الخلل في الفكرة والحركة بالمثل الشهير في الذي

لف بيده اليسرى حول رأسه ليشير إلى أذنه اليمنى التي سئل عنها، فلقد فهم

الفكرة، لكنّه أضاع الكثير من الوقت والجهد وظهر بمظهر الغبي المتخلّق، لهذا

أطلق على هذا الخلل مصطلح "اللافعالية"، حيث يصبح المجتمع عقيما وإن توفّر

على العقل المجرد، غير أنّ ما ينقصه هو العقل التطبيقي «لأنّ العقل المجرد

متوفر في بلادنا غير أنّ العقل التطبيقي الذي يتكوّن في جوهرة من الإرادة

والانتباه فشيء يكاد يكون معدوماً»³.

¹ - مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ص 85.

² - المصدر نفسه، ص 85.

³ - محمد محفوظ: النظرية الثقافية عند مالك بن نبي، صحيفة الرياض عدد 14176.

لأنّ المنطق العملي هو في الأساس التّمكن بجدارة من الرّبط بين
وهدفه، بين سياسة ووسائلها، ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحقيقها».¹

■ التوجيه الفني أو الصناعة:

آخر شرط في بناء الثقافة، ويقوم على تقسيم المهام والتي تضم الفنون
والمهن والقدرات فهذا أستاذ، وذلك طبيب أو بناء أو فنان أو راع
المجهودات في أداء وظيفة على الأساس الأخلاقي، ويتمتع بذوق جمالي، ويسلك
المسالك التي يهيمن عليها المنطق العملي؛ أي مسالكه لسد حاجاته اليومية بما
يتعلمه في الجامعات».²

وبكل هذه الامكانيات البسيطة سيتكون الفرد الحامل لرسالته التاريخية
فالصناعة ليست وسيلة لسد رمقه وبناء مجده الشخصي فحسب، "لكنها للمجتمع
وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه".³

بإرساء هذه المبادئ الهامة التي أقام عليها بن نبي صرح الثقافة يمكن
الوقوف على حلّ مشكل الثقافة وفق ثلاثة مستويات:

1. المستوى المعرفي: بتجاوز التكديس إلى البناء، وهدم الأفكار
المرسخة لما يسميه "القابلية للاستعمار".
2. المستوى السلوكي: من خلال تفعيل المنطق العملي والصناعة
وتحقيق الفائض في الواجبات على حساب الحقوق وتوجيه رأس

المال والفعالية.

¹ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 103.

² - مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص 112.

³ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 104.

3. المستوى الوجداني: وهو توجيه الأخلاق والعناية بالذوق الجمالي

واستحضار الفكرة الدينية.

5- المرأة في فكر مالك بن نبي: (الأنا و الآخر هاجس مساواة)

تعد قضية المرأة من القضايا الهامة التي أثارها مالك في كتاباته وأدرجها

ضمن منظومته الفكرية العامة التي حددها في مشكلة الحضارة.

تميزت علاقة مالك بالمرأة بالخصوصية تارة جراء حديثه عن روابطه

الأسرية الانثوية (حفيداً، ابناً، أخاً وزوجاً). والتنظير تارة أخرى لواقعها ومستقبلها.

حين وقف مالك على أهم انشغالات المرأة واهتماماتها كالحجاب والزينة

والمشاركة الفاعلة في الحياة السياسية والاجتماعية، لم يؤسس لرأيه انطلاقاً من

مرجعية فقهية، تخول له التحريم أو الإباحة، بل إنّ ما كتبه مالك خاصاً بالمرأة

إنّما أكد فيه على ضرورة أن يكون للمرأة المسلمة حضوراً قوياً لأنها تحمل كل ما

تحمله المرأة الأوروبية من مؤهلات البناء الحضاري، كما أنها فرد فاعل في خير

أمة أخرجت للناس، فكثيراً ما يحدثنا التاريخ عن "سيدات مسلمات قد تسابقن إلى

الخبرات وتنافسن في البر والتقوى، حتى تركزن للأجيال المقبلة قدوة يقتدي بها، إذ

نجد في سماء الأدب الأندلسي اسم "ولادة" يلعب حين كانت تشرف على

"صالون أدبي" يجتمع فيه فحول الأدباء والشعراء، قبل أن يلعب اسم "مدام دي

رمبولية" في الأدب الفرنسي بقرون".¹ لأن مشكلة التطور في حد ذاتها لا ترتبط

بتطور الأشخاص منفردين، بل بتطور المجتمع كتلة واحدة، ويقع على عاتق

المرأة كما الرجل بحث الحلول الكفيلة لتخليص الأمة المسلمة من تخلفها الشامل.

¹ - مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 111.

لهذا أكد مالك بن نبي " أن ليس هناك مشكلة للمرأة معزولة عن مشكلة الرجل فالمشكلة واحدة، هي مشكلة الفرد في المجتمع، فقد حاول الكثيرون، بوعي من الفكر الغربي التجزيئي، النظر إلى قضية المرأة كقضية مستقلة ومن ثم خلقوا معركة مفتعلة بين أفراد المجتمع الواحد، ووضعوا المرأة في مواجهة الرجل، وهذه قمة التجزيئية وتشويه حقيقة الصراع الحضاري".¹ الذي لم يكن في أساسه صراعا

بين الرجل والمرأة، فكلاهما في فكر مالك بن نبي " انسان" لا يهم جنسه أو تكوينه البيولوجي بقدر ما تهتم قدرته على التغيير والتّصدي للتحديات المحيطة بالامة.

إنّ رفض مالك للنظرية الكلاسيكية التي بحثت قضية المرأة والتي درستها بمعزل عن قضية الرجل، نابع من اعتبارها مجرد احكام واهية ومحض افتراء، لم تحرك فعليا مكانة المرأة ولم ترق بها إلى المرتبة الحقيقية التي أنزلها بها الإسلام كعنصر مكلف، فاعل ومشارك في البناء الحضاري، " ففي كل مجتمع، عندما يكون هذا المجتمع مهددا بأخطار معينة، وتكون هذه الأخطار محدقة بمصيره، ينشأ في المجتمع " حالة انقاد" وعندئذ فالرجل و المرأة على حد سواء في الواجب إذ القضية هنا قضية المسلمة والمسلم معاً، لا قضية المسلمة من جهة، والمسلم من جهة أخرى".²

كما يرفض مالك بن نبي أقاويل أدعياء تحرير المرأة للعلة ذاتها لأن منح المرأة حقوقها " على حساب المجتمع، معناه تدهور المجتمع، وبالتالي تدهورها أليست هي عضوا فيه؟.

¹ - إدريس الكنبوري، المرأة في فكر مالك بن نبي، (أطروحة دكتوراه) جامعة وهران ، الجزائر ، 2016 ص 131 .

² - مالك بن نبي، مجالس دمشق، ص 136.

فالقضية ليست قضية فرد، وإنما هي قضية مجتمع"،¹ تفضل عليها بالكثير

من الحقوق مقابل بعض الواجبات.

ان افتتاح نساء الشرق بنموذج المرأة الأوروبية، وتقليدها، أمر يأسف له مالك ويرثى له، فليست حالة المرأة الأوروبية بالتي تحسد عليها، حيث رتب خروجها بصورة تخاطب الغريزة الحيوانية، كما وصلت مشكلة النسل في الغرب إلى حد الرثاء، حيث فقدت تنظيمها الاجتماعي، وتلاشت معاني التقديس للعلاقات الجنسية " فالمطلوب إذن عند مالك هو التخلص من نظرة الإعجاب التي ينظر بها أنصار تحرير المرأة في العالم الإسلامي إلى المرأة الأوروبية، لأن هذه الخطوة الأولى نحو التشخيص الصحيح للمشكلة، ومكان الخل".²

تميز أسلوب مالك بن نبي في تحليله لمشكلات الحضارة، عرض المشكلة ثم اقتراح الحل، فهو لم يكتف بفرض آراء من نظروا لقضية المرأة، بل سعى جاهداً إلى مسح الغبار عن النموذج المثالي لوضع المرأة والمستمد من تعاليم الإسلام القائمة على الوسطية، فهو وإن حرّرها من سلطة الذكر في المجتمع الجاهلي وقسوته، فإنه ينبذ وبشدة المرأة (الفارسة Ouazone) حيث تحكم المرأة وتسوس مجتمعا من الرجال المخنثين، سينتهي به الأمر حتماً إلى الفجور و الانحلال.

إنما هو يدعو ويؤكد على " أن نعيد إلى المرأة الكرامة التي وهبها لها الإسلام، عندما أنقذها من عادات الجاهلية القاسية، ولكن فلنعد لها كرامتها لنجعل

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 125.

² - إدريس الكنبوري، المرأة في فكر مالك بن نبي، ص 133.

منها " السيدة " التي توجي إلى الرجل بالعواطف الشريفة، لا " الفارسة " التي تسيطر عليه".¹

ولأن مشكلة المرأة دقيقة وحساسة، يدعو مالك المرأة بنفسها إلى عقد مؤتمر عام تحدد فيه مهامها لصالح المجتمع، حتى لا تكون ضحية جهلها وجهل الرجل بطبيعة دورها.

ويدعو المثقفات خاصة إلى إدراك دورهن أولاً في القيام بواجباتهن في العبادات وهذا طبيعي، لكن عليهن ثانياً ونتيجة للقيام بهذه الواجبات " أن يعين أكثر من ذلك المرحلة التي يمر بها العالم الإسلامي، وذلك بإرشاد آبائهن وإخوانهن و أزواجهن وأبنائهن إلى مقتضيات الواجب الديني أولاً، وبالتأكيد على وحدة المشكلة، أعني ردم تلك الفواصل التي استأثرت بالأزمة التي يمر بها العالم الإسلامي بين المرأة والرجل في إطار الحقوق والواجبات".²

¹ - مالك بن نبي في مهب المعركة، ص 112.

² - مالك بن نبي، مجالس دمشق، ص 136.

1 - الحضارة في فكر مالك بن نبي

1. مفهوم الحضارة

2. عناصر الحضارة

3. دورة الحضارة

4. مشاكل الحضارة

أ) مشكلة الإنسان

ب) مشكلة التراب

ج) مشكل الوقت

2 - مشاريع الإقلاع في فكر مالك بن نبي

أ - مصطلحات الإقلاع الحضاري في كتابات مالك بن نبي

- التغيير في فكر مالك بن نبي
- النهضة في فكر مالك
- التنمية في فكر مالك بن نبي
- الفعالية في فكر مالك بن نبي
- التجديد و الإصلاح

ب - المشروع الحضاري في فكر مالك بن نبي

- من التكديس إلى البناء
- من استيراد الحلول إلى صنعها
- قوة الفكرة الدينية بين الانتساب و الالتزام
- من الفوضى إلى التوجيه
- مسار الأفكار من السكون إلى الفعالية

1 - الحضارة في فكر مالك بن نبي :

الحضارة لغة مشتقة من الجذر "حضر" ويقال الحضارة هي القرى والأرياف والمنازل المسكونة، فهي خلاف البدو والبدواة والبادية المعروف أهلها بالتنقل وعدم الاستقرار في بقعة جغرافية محددة، كما يمارس أهل الحضرة الزراعة، ويعتبر المجتمع الصناعي الحديث شكلا من أشكال الحضارة.

أما اصطلاحاً فيمكن تعريف الحضارة أنها كل أشكال الفنون والتقاليد والميراث الثقافي والتاريخي وكذا مقدار التقدم العلمي والتقني الذي تمتع به مجتمع معين في حقبة تاريخية معينة، فهي في فكر غوستاف كلم Gustef Kelmm «العادات والمعلومات والمهارات والحياة الخاصة والعامة في السلم والحرب والدين والعلم والفن، وتتمثل الحضارة في نقل تجارب الماضي للجيل الجديد»¹.

كما يعرفها ابن خلدون (ت 808 هـ) على أنها «نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير»². «موحيا بذلك إلى آخر مرحلة تمرّ بها الحضارة، أي عندما تتفكك العصبية وتضمحل الروابط التي تجمع الأفراد على بناء المجتمع، بعد أن عرف مراحل سابقة من الرقي والتطور في العلوم والاختراعات. ويتفق جلّ المؤرخين والمفكرين أنّ الأمن و الأمان هو روح الحضارات وإكسير استمرارها، فالحضارة في الأصل تتألف من «عناصر أربعة:

¹ - صبري خليل: حوار الحضارات من منظور إسلامي، موقع <https://drsabrihalil.file.wordpress.com>.

² - عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، 2007، ص137.

الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافه التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تتفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها».¹

أمّا مالك بن نبي فيختصر مفهومها على أنه «مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كلّ طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار النمو».²

إنّ للحضارة عند مالك جانبان لا يكادان ينفصلان، جانب يهتمّ بالشروط المعنوية في صورة إرادة تحرك المجتمعات نحو هدف تحديد مهامها الاجتماعية وجانب يهتم بشروطها الماديّة بحيث يضع تحت تصرف المجتمعات، الوسائل الضرورية للقيام بالوظيفة الحضارية كالمدرسة والمستشفى ومكان العمل والأمن ونظام شبكة المواصلات، واحترام شخصية الفرد....

لقيام حضارة لابدّ من انخراط المجتمع كله وتجنّده من أجل تحقيق هدف معيّن، يتمكّن من خلاله العيش في جماعة، مدركا بذلك أهمية شبكة العلاقات الاجتماعية ودورها في تنظيم حياة الإنسان.

¹ - صامويل هنتجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، تر: طلعت الشايب، تقديم صلاح قنصوة، روكفلرسانتر، نيويورك، ط2، 1999، ص156.

² - مالك بن نبي: آفاق جزائرية، مكتبة عمار، القاهرة 1971، ص 47/46.

و يتقاطع مالك مع الكثير من المؤرخين والمفكرين في ميزة التطور
التصاعدي للحضارة كاشبنجلر و أرنولد توينبي وكذا ابن خلدون الذي يرى أنّ حياة
الشعوب وحضارتها تنتقل من طور البداوة والتوحش إلى حياة الترف والغنى
في آخر مرحلة إلى سنّ الشيخوخة ثم الفناء.

إنّ الحضارة كالإنسان تولد، فتتمو ، ثم تكبر لتشيخ، فتهرم وتموت، كما
يذهب بن نبي في تحديد مميزات الحضارة أنها هي «التي تنقل الإنسان إلى شكل
من أشكال الحياة الراقية».¹

فهي تتميز بالحركية وعدم الاستقرار، فهي لا تتمركز في بقعة جغرافية
واحدة ف «الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنّها تدور حول الأرض مشرقة في
أفق هذا الشعب ثم متحولة إلى أفق شعب آخر «². غير أنّ بن نبي لا يكتمل عنده
مفهوم الحضارة دون أن يؤكد على الفكرة الدينية، المحرك الأساسي لتطور الأمم
وبناء الحضارات.

لا تتبع الحضارة إلّا بعقيدة دينية، ولا تبدأ إلّا حين يتعلق الإنسان بمبدأ
سماوي يُنهي داخله الرحيل والقلق ويُشعره بالاستقرار والأمن فيُبدع بعدها
الروح، والروح وحده، هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحينما فقد الروح
«لأنّ

¹ - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 19.

² - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 73.

سقطت الحضارة وانحطت، لأنَّ من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلاَّ أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض».¹

وهذا يقودنا إلى تحديد معادلة اتجاه الحضارة التي يتضح من خلالها فكرة مالك بن نبي عن نوعية الحضارة لكل شعب على حدى، فإن تشابهت الحضارات في التطور والرقى، فإنها تختلف في المبادئ والمنطلق.

فاتجاه الحضارة = مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي

والترتيب في هذه المعادلة ضروري جداً، حسب نموذج المجتمع، فهناك مجتمع يقوم فيه النشاط على دوافع أخلاقية أولاً، ومجتمع يقوم فيه النشاط على الدوافع الجمالية.

ويترتب على الاختلاف نتائج تاريخية مختلفة جذرياً «فالنموذجان اللذان

يختلفان هكذا، بسبب اختلافهما في ترتيب عناصر الثقافة، لا يتطوران في اتجاه

واحد، بل إنَّه في بعض الظروف تنشأ بينهما مناقضات جذرية: حتى أنَّ الأمر

الذي لا يريد أحدهما -بل لا يمكنه أن يريد- تحقيقه بسبب أخلاقي، نرى الآخر

يحققه بسبب جمالي».²

يمثل مالك لهذا الاختلاف بعدة مظاهر مثل التماثيل وصور النساء العارية

في الحضارة الغربية كرمز جمالي، في حين أنَّ الرادع الأخلاقي في المجتمع

¹ - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص31.

² - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص109.

الإسلامي يرفض هذا اللون الجمالي لتعارضه مع أخلاقياته تعارضاً تاماً
فالحضارة نفسها ما هي إلا «تنظيم معين للمجتمع على قواعد أخلاقية».¹

¹ - مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص55.

2. عناصر الحضارة:

تتمحور عناصر الحضارة عند أغلب المفكرين حول ثلاث عناصر هي:

1 - إنسان

2 - فكر

3 - أشياء (التراب، رأس المال وشتى العوامل الفكرية)

ويشترط توازن نسب هذه العناصر، فلا يطغى عنصر على آخر

فالحضارات لا تسقط «لأنها خلو من هذه العناصر، بل إنما تسقط الحضارات

عندما تطغى نسبة عنصر على عنصر، فعندما يعبد الإنسان الفرد، ويصبح هو

الهدف، وتُصاغ الحياة -بوسائلها وأهدافها- من أجل استمتاعه يقع الخل، وكذلك

عندما يطغى الفكر ويذوب الإنسان فيه على حساب (الإنسان) أو (الأشياء)

فيتترك العمل، ويصبح الفكر لمجرد الفكر ويريد بعضهم أن يصوم فلا يفطر ويقوم

آخر فلا ينام، وبترهين ثالث فلا يتزوج، هنا يطغى تألف الفكرة وتهدد الحياة

بالخلل»¹.

¹ - سليمان بن أبي القاسم السرقوسي: منظومة بناء الحضارة وعناصرها الثلاثة، مجلة البحوث الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد 21، من ربيع الأول إلى جمادى الثانية، 1408هـ، ص161.

ويرى بعض المهتمين بالحضارة الإسلامية أنّها تشتمل على ثلاث عناصر هي:

1 - التنظيم السياسي

2 - المجتمع

3 - الثقافة

فلكي تقوم حضارة لا بد من تواجد مجتمع متماسك متخلّق، مثقف، تحكمه

قوانين وعقيدة. وهناك من علماء الفلسفة من يرى أن الحضارة تقوم على أربعة

عناصر هي:

1 العقل

2 الإنسان

3 البيئة

4 الزمن

فالإنسان كائن عاقل بإمكانه بناء حضارة بقدرة العقل الذي مُنح له وكذا
إمكانية تكيفه وتفاعله مع بيئته التي تؤثر في أخلاقه وصفاته الطبيعية، ويصبح
هو نفسه خالقاً.¹

عمد بن نبي إلى تفكيك الحضارة مستعينا بآليتين هما:

- آلية التحليل: بحيث حلّ الحضارة إلى عناصر أولية مستحدثاً بذلك

معادلة رياضية:

$$\text{إنسان} + \text{تراب} + \text{وقت} = \text{حضارة}$$

- آلية تركيب: لا تستطيع هذه العناصر منفصلة إنشاء حضارة إذ ستظلّ

ساكنة غير فاعلة، ما لم تحركها الفكرة الدينية والعقيدة التي تلعب دور الوسيط
بين متغيرات المعادلة، وإذا استثنينا هذه الفكرة تحولت المعادلة إلى مجرد تشكيل

«يجعل من "الإنسان" العضوي، وحدة اجتماعية ويجعل من "الوقت" -الذي ليس

سوى مدة زمنية مقدرة، ساعات تمر - وقتاً اجتماعياً مقدراً، ساعات عمل ومن

"التراب" -الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك

بسيط - مجالاً مجهزاً مكيّفاً فنياً يسدّ حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة،

تبعاً لظروف عملية الانتاج».²

¹ - انظر: اسوالد اشينقلر: تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: أحمد الشيباني، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ج 1، ط 1، 1964، ص 48.

² - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 32.

ومن خصائص التحليل العلمي الدقيق الذي يتبعه مالك في عرض أفكاره وترتيب القضايا حسب أولوياتها ثم الدخول في التفاصيل، لم يفته أن يعرّج على الفكرة الدينية التي هي أساس معادلته الشهيرة، إذ يرى أنّه إذا فرغ الدين من إشعاعه يصبح عاجزاً عن دفع الحضارة وخلق التفاعل بين عناصرها (وقت، تراب، إنسان).

إنّ الفكرة الدينية هي إيمان قوي وعقيدة متينة تحثّ على شحذ الهمم بمنطق العمل والحركة وهي بعيدة جداً ولا تمتُّ بأية صلة إلى الفكر الخرافي المستمد من ثقافة الفرق الإسلامية المندثرة، وهي ذات معنى واسع قد تشمل أي دين أو مبدأ أخلاقي أو أيديولوجية كالاشتراكية أو الليبرالية إذا ارتقت عند معتققيها إلى درجة القداسة والتفاعل الوجداني.

لقد حاولت الشيوعية مثلاً وفي فترة ركود ديني «تقديم مبررات جديدة باستغلال لمعطيات الدين النصراني وتوجيهها وجهة أرضية، فهي النتيجة الطبيعية للتطور التاريخي للمجتمع النصراني. «¹ فهي بالأحرى عملية تعويض للنصرانية كفكرة دافعة ومحركة للشخص النصراني.

¹ - عبد الله بن حمد العويسي: مالك بن نبي، حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط 1، بيروت، لبنان، 2012، ص 428. (رسالة ماجستير).

3. دورة الحضارة:

للحضارة دورة كاملة تتكون من ثلاث مراحل حسب ما أثبتته مالك مستنداً على ما توصل إليه أغلب المؤرخين إذ يذهبون إلى أنّ الحضارات ليست أبدية فهي وإن كانت تعيش طويلاً « إلا أنها تتطور أيضاً، وهي حركية، تنهض وتسقط، تتحد وتنقسم، وكما يعرف كل دارس للتاريخ فهي أيضاً تتدثر وتدفن في رمال الزمن».¹

تمر الحضارة عند ابن خلدون * بثلاث مراحل هي مرحلة البداوة، مرحلة الحضارة ثم مرحلة الترف فمرحلة التدهور. أمّا شبنجلر * فيعتبر الحضارة كائناً حياً، يولد، ينمو، يكبر ويهرم ثم يموت « وبذلك يكون التاريخ العام بمثابة الترجمة لحياة هذه الحضارات التي تعتبر تراكيب عضوية».²

فحين نتبع هذه المراحل الحياتية (مولد، نمو وازدهار ثم انحلال) فإنّه بالإمكان التنبؤ بمستقبل أيّ حضارة لهذا حدد شبنجلر عمر الحضارة الغربية وفترة زوالها من 900م إلى 2400م.

¹ - صموئيل هنتجتون: صدام الحضارات، ص 72.

* عبد الرحمن ابن خلدون (1332-1406 م) مؤرخ تونسي الأصل، تخرج من جامعة الزيتونة، تنقل بين بسكرة و غرناطة وبجاية وتلمسان كما توجه إلى مصر وولي فيها قضاء المالكية، يعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الحديث.
* أوسفالد أرنولد غوتفريدشبينغلر: (29 مايو 1880 - 08 مايو 1936) مؤرخ وفيلسوف ألماني، عُرف بكتابه " تدهور الحضارة الغربية"، و "انحدار الغرب" وكتابه " ساعة الحسم" الذي كان سبباً مباشراً في نبد الاشتراكيين القوميين له.
² - أوزالدشبنجلر: تدهور الحضارة الغربية، تر: أحمد الشيباني، ص 87.

اعتنق بن نبي فكرة "الدورة" وأقرَّ أن بن خلدون هو من استنبط هذه الفكرة

في نظريته عن الأجيال الثلاثة واستمات -مالك- في الدفاع عن هذا النظام

الطبيعي، إذ يصفه كقانون تخضع له باقي مخلوقات الله، فالإنسان يبدأ دورة

حياته صبيّاً ثم شاباً فكهلاً، ثم يفنى، وكذا اليوم يبدأ بشروق الشمس، فالزوال

فالعروب ثم الظلام وكذلك الأمر بالنسبة للشهر والسنة و... .

لهذا يؤكد مالك أن أغلب المظاهر الكونية تخضع لهذا القانون وتسير

ضمن نظامه.

أما عن دورة الحضارة عند مالك فهي تمرّ بثلاث مراحل تختلف من حيث

عناصرها، وظيفتها وفتراتها الزمنية بكل حملتها وهي على التوالي:

1 - مرحلة أولى: أسماها مرحلة الروح وهي مرحلة النشأة والميلاد تكون

العاطفة والعطاء الوجداني في أوجهما، وتتميز مرحلة الروح بطاقتها وفعاليتها

الكبيرة التي تتولّد جرائها حضارة عظيمة.

2 - مرحلة ثانية: هي مرحلة ينضج فيها العقل، فيبدأ التطور المادي

والنماء العلمي كما تبدأ القيم الروحية في التفسخ شيئاً فشيئاً.

3 - مرحلة ثالثة: مرحلة الهرم الحضاري، حيث يسود الظلم والفساد

وتتغلب الشهوة الجسدية، وتحلّ الغريزة الطبيعية محل العقل، فتعيد الإنسان

إلى مرحلة الانحطاط وتتوقف الأمة عن الإنتاج وتدخل في استهلاك ما

أنتجته وتصبح الحضارة عاجزة عن التوقف أو التراجع إلى الخلف دون السير نحو الفناء والاندثار.

اهتم مالك في الغالب بالحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي، وبحث بدقة عن الأسباب البعيدة التي أدت إلى نبوغه وتقهقره وانحطاطه، لهذا اختاره محوراً لدراسته ضمن الخصوصيات التي ميزته.

تبدأ دورة الحضارة الإسلامية بمرحلة الروح تزامنا مع نزول الوحي على الرسول - صلى الله عليه وسلم- بغار حراء، وكان سكان الجزيرة العربية آنذاك يعيشون في عصبية قبلية وجهالة، تحكمهم العادات والأعراف فكانت عناصر الحضارة: إنسان، تراب ووقت راكدة خامدة مكدسة بلا فاعلية. وما إن تمكن الإسلام من قلوبهم حتى تحوّل المسلم من درجة الجمود إلى درجة العطاء و الانتاج، فكان التغيير الذي أحدثه انتصار الروح، شاملا وجذرياً. لهذا يتفق بن نبي مع «كسرلنج» و «سبنجلر» في أنّ ظاهرة التغيير والتحوّل في التاريخ والانتقال من الانحطاط إلى الحضارة تعود إلى تغيير الأنفس.¹ ويمثل لذلك بالحضارتين

الإسلامية و المسيحية اللتان قامتا كلتاهما على قوة الإيمان والاعتقاد.

يؤكد بن نبي على قيمة الروح في دفع المجتمع الإسلامي الأول إلى

الإقلاع من العدم نحو بناء حضارة عظيمة بقيت قائمة ببقاء هذا الفكر الروحي

الدافع، وزالت بزواله عند سقوط بغداد وغرناطة «لأنّ الروح والروح وحده هو الذي

¹ - جيلالي بوبكر: البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، الجزائر، 2010، ص 45.

يتيح للإنسانية أن تهض وتتقدم، فحيثما فُقد الروح سقطت الحضارة وانحطت لأنَّ

من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض.»¹

وتستمر هذه المرحلة (مرحلة الروح) طيلة فترة حكم الخلفاء الراشدين إذ ما

فتى المجتمع يحافظ على إرادته البكر إلى موقعة صفين (سنة 38هـ) التي يعتبرها

مالك بن نبي أول انفصال في العالم، إذ كان المجتمع الإسلامي الجديد «يحمل

بين جنبيه بعد قليل من السنوات ميلاده تعارضا داخليا؛ كانت "حمية الجاهلية"

تصطرع مع "الروح القرآني" فجاء معاوية -رضي الله عنه- فحطم ذلك البناء الذي

قام لكي يعيش ربّما إلى الأبد، بفضل ما ضمنه من توازن بين عنصر الروح

وعنصر الزمن».²

ومع بداية الدولة الأموية، يبدأ طور العقل، فاستمرت هذه المرحلة قرونا

واتسعت رقعتها لتصل إلى أقصى جنوب شرق آسيا وشمال أفريقيا وأجزاء من

أوروبا فازدهرت العلوم والصناعات والفنون، وعاش المسلمون حينها حياة البذخ

والترف، فبدأت الغريزة في التحرّر شيئا فشيئا وبدأ الروح في التقهقر وفقد سلطانه

شيئا فشيئا.

والعجيب أنّ مالكا لا ينتقد هذه المرحلة من أطوار دورة الحضارة بقدر ما

يشيد بمزاياها وبما حققه العرب إبّانها، فيرى أنّنا « ندين لتلك "الحضارة" المنحرفة

التي ازدهرت في دمشق في ظل الأمويين باكتشاف النظام المئوي، وتطبيق

¹ - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص31.

² - نفس المصدر، ص29.

المنهج التجريبي في الطب واستخدام فكرة الزمن الرياضية، وهذه هي المعالم

الأولى للفكر الصناعي»¹.

وبسيطرة "المادة" على "الروح" يبدأ المجتمع الإسلامي بفقد توازنه ويبدأ عالم

"الأشياء" بالاستحواذ على عالم " الأفكار" لتدخل الحضارة آخر أطوارها حسب

نظرية بن نبي وهو طور الاندثار والفناء أي طور الغريزة « وعندما يبلغ مجتمع

ما هذه المرحلة أي عندما تكف الرياح التي منحتة الدفعة الأولى عن تحريكه

تكون نهاية "دورة" وهجرة "الحضارة" إلى بقعة أخرى، تبدأ فيها دورة جديدة، طبقا

لتركيب عضوي تاريخي جديد»².

ولكي يعيد إنسان ما بعد الموحدين بناء حضارته لا بدّ من تغيير نفسي

عميق، انطلاقا من جذوره الأساسية ليمتد زمنا طويلا من أجل استغلال فرصة

ثانية وإقامة حضارة جديدة، إذ بعد محاولات عدة للنهوض لم يستطع «أن يستمد

دفعة الإقلاع الحضاري من العالم الثقافي للصفوة من أبنائه الذين نالوا تعليمهم

من الجامعات الغربية، كما لم يستلهم روح الحضارة من الأيديولوجيات العملية

التي طُويت ثورية في البلاد العربية بإعطائها تلك الشعلة التي ألهبت روح

ال جماهير حتّى مكنتهم من سدّ الطريق أمام "موشي دايان" في حرب الأيام الستة.

كما لم يستفد في أسلوبه من صرامة التفكير الموروثة من عصر ديكارت»³.

¹ - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 29.

² - نفس المصدر، ص 31.

³ - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار، ص 47.

لا يزال إنسان ما بعد الموحدين يحاول لأكثر من قرن أن يدخل في مرحلة ما قبل الحضرة من جديد «لكن إقلاعه يبدو ثقيلاً وبطيئاً إذ ما قورن ببعض المجتمعات المعاصرة مثل اليابان أو الصين الشعبية التي كانت متأخرة عنه بكثير»¹.

4. مشكلة الحضارة:

كلما ذُكرت الحضارة، ذُكر بالموازاة مالك بن نبي كأهم المفكرين الذين تعمّقوا في دراسة أسباب قيامها ودواعي فشلها وانحطاطها. وكان نتاج هذا الاهتمام والدراسة حوصلة من الأفكار العميقة والنظريات الرائدة التي تفرد بها بن نبي وتضمنتها جميع كتبه التي صدرت تحت عنوان ثابت هو مشكلات الحضارة. لم ينف -أبداً- مالك بن نبي اطلاعه على ما توصّل إليه غيره من المفكرين الذين اهتموا بظاهرة الحضارة كابن خلدون (ت 808هـ) و شبنلجر وتوينبي * وغيرهم، غير أنّه توصّل إلى صياغة نظريته الخاصة -مركزاً على الحضارة الإسلامية- والتي تضمنت مفهومه للحضارة، مركباتها ومكوناتها وكذا دورتها بالنسبة للمجتمعات والأمم.

إنّ الحضارة في فكر بن نبي هي "كلّ" لا يمكن تجزئته، تنطلق ضمن خط تصاعدي، في حلقات مترابطة، قد يؤدي فقدان أيّ حلقة إلى خلل قد يعطل مسار

¹ - محمد الشاويش: مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، دمشق 2007، ص36.
* أرنولد جوزيف توينبي: ولد بلندن في 14 أبريل 1889 من أكبر مؤرخي القرن العشرين، أشهر أعماله "دراسة للتاريخ" و "الإنسان وأمن الأرض" توفي في 22 أكتوبر 1975 بلندن.

الحضارة بأكملها، فهي تضم ثلاثة عوالم، عالم الأفكار، عالم الأشخاص وعالم الأشياء، تربط بينهما شبكة علاقات اجتماعية، لا يمكن لأيّ مجتمع أن ينشأ بدونها، لأنّ « شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. ¹ »، وقد تنتهي حضارة أمة ما بتمزق خيوط هذه الشبكة وإن توفرت العوالم الثلاث كما حدث للمجتمع الإسلامي إبان تداعيه إن كانت هذه مقومات الحضارة فأين تكمن أهم مشكلاتها التي أدرجها مالك كمعوقات في طريق نهضة الأمة الإسلامية؟.

يؤكد بن نبي أنّ « مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحلّ مشكلته مالم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية ومالم يتعمق في فهم العوالم التي تبني الحضارات أو تهدمها. ² » وبما أنّ الحضارة عند مالك قد حُصرت ضمن معادلته الشهيرة: حضارة = إنسان + تراب + وقت فبالمقابل مشكلة الحضارة = مشكلة إنسان + مشكلة تراب + مشكلة وقت. ولكي « نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدّس المنتجات وإنّما بأن نحلّ هذه المشكلات الثلاث من أساسها. ³ ».

¹ - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 25.

² - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 100.

³ - مالك بن نبي : نفس المصدر، ص 50.

أ. مشكلة الإنسان:

الإنسان هو محور العملية الحضارية، وحركة الوجود كلها ما هي إلا الوجه الآخر لعلاقة الإنسان كخليفة لله في أرضه وبين الخالق سبحانه، فهي علاقة « تحفظ الكون وتضمن استقرار الحياة، و تهيء الاستمتاع بما فيها من متع مادية ومعنوية لا حدود لها، لكل من انضبط بقوانين الاستخلاف والالتزام بشروطه في فهمه وسلوكه وعمله ومواقفه، وحركته في الحياة»¹.

وهو الكائن الذي يعيش مراحل تاريخية معينة بحسب كل مرحلة حضارية يمر بها مجتمعه، فالإنسان -من منظور بن نبي- هو مجموع الأجيال التي صاحبت نشأة الحضارة، فذكر الإنسان الطبيعي، البسيط، السابق للحضارة، الذي يعيش على الفطرة ولم يخضع لأي عملية تكييف اجتماعي، فهو كائن خام.

ثم إنسان الحضارة، الفرد المكيف، فإنسان ما بعد الحضارة الذي تغلغت فيه دواعي الانحطاط وأضحى يعاني من مرض العجز وعدم القدرة على مواجهة المشاكل التي تعترضه، فتفسخت أخلاقه وقدراته بسبب نضوب مخزون الروح والعقل، لذلك فإن مشكلات الحضارة إنما تنبع من الإنسان وتعود إليه، وهي كثيرة ومتنوعة ومختلفة باختلاف البيئة لآته « لا يمكن لنا أن نوازن في الوقت الحاضر

¹ - الطيب برغوث: منهج النبي صلى الله عليه وسلم - حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1416هـ/ 1996م، ص59.

بين رجل أوروبا المستعمر ورجل العالم الإسلامي، القابل للاستعمار، لأن كليهما في طور تاريخي خاص به».¹

ركّز مالك بن نبي على مشكل الحضارة في العالم الإسلامي وبحث قضايا الإنسان المسلم النفسية والاجتماعية والثقافية، دون أن يتجاهل العوامل التاريخية والسياسية التي تؤهله لنهضة جديدة، لأنه يعتبر الإنسان « جهازا دقيقا، أدق من كل شيء نتصوره في الميكانيك الدقيق، ولكنّه جهاز تخضع حركاته وسكناته إلى قانون صاغه ماضي أسرته ومجتمعه وثقافته، ولا بدّ من نظرة إلى ماضي هذا الجهاز لنعرف مدى صلاحيته في العمليات الاجتماعية والمشروعات المخططة القائمة عليه »² وحين يقع الخلل أو المشكل، فالمؤثر ليس خارجيا فحسب، فهو نابع من الإنسان نفسه من تأثير ماضيه وحاضره وتراكمات نفسية عميقة تعطلت طاقات الإنسان جراءها لأنّ « جوهر المشكلات ليست في حوادث خارجية، فنحن إذا تصوّرنا المشكلات في إطار اجتماعي فقلنا هي الجهل، أو في إطار اقتصادي فقلنا هي الفقر، وفي إطار سياسي فقلنا هي الاستعمار فإننا في هذا كله إنّما نبحث نتائج لأسباب سابقة أصولها في أنفسنا».³

إنّ عدم إدراك المسلم لواقع التخلّف الذي يعيشه وعجزه عن اتخاذ موقف محدد من مشكلاته المتكررة، ثم تخاذله في التصرف في الإمكانيات المتاحة لحلّها هو في الأساس أصل مشكلات الإنسان المسلم.

¹ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 81.

² - مالك بن نبي: تأملات، ص 180.

³ - المصدر نفسه، ص 124.

ويمثل مالك لذلك بأفة النفايات في شوارع المجتمع العربي، الذي يلجأ إلى

حلّ هذه المشكلة بزيادة عدد سلال المهملات في الشوارع فقط، فذلك -حسب

مالك- ليس حلاً، لأنّ السلال الزائدة إذا كانت تصلح لمجتمع معين، فإنّها في

مجتمع كالمجتمع العربي هو مجرد تكديس لعدد آخر من السلال، لأنّها في أغلب

الأحيان تبقى شبه فارغة ومن حولها الأرض ملأى بالمهملات « فالقضية إذن

ليست في قضية أدوات ولا إمكانيات، إنّ القضية كانت في أنفسنا، إذ علينا أن

ندرس أولاً الجهاز الاجتماعي الأول وهو الإنسان. فإذا تحرك الإنسان، تحرك

المجتمع والتاريخ، وإذا سكن، سكن المجتمع والتاريخ».¹

إنّ أهم مشكلات الإنسان المسلم هي نابعة من ذاته حين لا يدرك أنّ

المعوقات التي تقف دون دخوله في دورة حضارية جديدة، إنّما مصدرها ركوده

وعدم حركيته، ومقدرته على تشخيص وضعه الاجتماعي والثقافي والاقتصادي

تشخيصاً دقيقاً وهي ما درج مالك بن نبي على تسميته بـ " الفاعلية " .

إنّ الإنسان لا يتغير ككائن حي في حدود التاريخ وإنّما يتغير ككائن

اجتماعي تبعاً لظروفه، فالإنسان في فكر مالك بن نبي قيمتان، قيمته كإنسان

خلقه الله في أحسن تقويم وفضله على سائر المخلوقات وكرمه بزيينة العقل وليس

لظرف من الظروف و لا لأحد من الناس أن يغيّر من هذا شيئاً، وقيمة أخرى

يكتسبها جراء عمليات اجتماعية بعينها، هذا ما عبّر عنه مالك بأسلوبه الرياضي

حين يرى أنّ الإنسان طرف هام ضمن معادلتين « معادلة تمثل جوهره كإنسان

¹ - مالك بن نبي: تأملات، ص 125.

صنعه من أتقن كل شيء صنعه، ومعادلة ثانية تمثله ككائن اجتماعي يصنعه المجتمع».¹

فالمعادلة الأولى لا فضل للإنسان فيها، أمّا الثانية فهي التي تحدّد لنا معنى "الفاعلية" وتحدث الفرق بين المجتمعات. لهذا نتساءل كما تساءل مالك عن الظروف والعوامل التي تجعل المجتمع يخلق في الفرد القيمة التي تبعث فيه الفاعلية؟.

يفتقر المجتمع المسلم إلى الإنسان ذي الطاقات الاجتماعية التي يحصرها مالك في ثلاث عناصر هي اليد، القلب، والعقل « فكل طاقة اجتماعية تصدر حتما من دوافع القلب ومن مبررات وتوجيهات العقل ومن حركات الأعضاء ... والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع و أقوم التوجيهات وأنشط الحركات »²، فالفاعلية لا تفي مجرد توافر العناصر الثلاث مجتمعة ما لم تثبت فيهم الحركة والإبداع عن طريق عنصر هام يدعوه مالك بـ "التوتر" ويحسبه القوة الدافعة التي توجه عمل اليد والعقل والقلب.

¹ - مالك بن نبي: تأملات، ص 131.

² - مصدر نفسه ، ص 34.

ب. مشكلة التراب:

إن المقصود بالتراب هي المقدرات المادية المتاحة في شكلها البسيط، ولقد

استخدم مالك مصطلح "التراب" في معادلته عن عمد إذ لم يتطور مفهوم لفظ

"تراب" إلا قليلاً، واحتفظ من حيث معنى المفردة ببساطة جعلته صالحاً أن تبقى

دلالاته ذات منحى اجتماعي، فالمجتمع -حسب مالك بن نبي- « هو المصدر

الذي يمنح التراب قيمته الاجتماعية، هذه القيمة المستمدة من درجة تقدم المجتمع

أو تخلفه هي التي تجعل من التراب مجالا فنيا مسخراً لمصلحة الفرد والجماعة أو

فضاء مهماً معطلاً، والمجتمع المتحضر هو القادر على تحويل التراب من شكله

الخام إلى شكل معّمل فنياً، بحيث يحقق الفائدة القصوى منه».¹

قد تضم مشكلة التراب مظهراً قانونياً يخص تشريع الأرض ومظهراً فنياً

يخص طرق استعماله، لأنّ الإنسان يتصل بالتراب بصورتين « صورة الملكية أي

من حيث تشريع الملكية في المجتمع الذي يحقق للفرد الضمانات الاجتماعية

فالتراب هنا شيء حيوي في المجتمع من حيث التشريع، وهو يتصل به بصورة

أخرى من ناحية علم التراب، المعلومات التي تتصل به كالكيمياء وغيرها».²

¹ - فوزية برون: مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته، ص 231.

² - مالك بن نبي: تأملات، ص 168.

يعيب مالك إهمال العالم الإسلامي للتراب وعدم العناية به، والتعمق في أبعاد فوائده على الفرد والمجتمع، فحذر من ظاهرة التصحر المدمرة للإمكانات الطبيعية التي تمثل رصيذاً اقتصادياً هاما يعول عليه بعد البترول.

بدأت الأراضي الزراعية في بلاد المسلمين تعرف تقهقراً أمام غزو الصحراء وهو وضع خطر تمتد تبعاته على اقتصاد هذه البلاد لأنَّ « تحول الأرض

الخصبة إلى فلاة، ثم إلى صحراء يؤدي إلى تحوّل في الحياة الاقتصادية؛ فقد تتحول أولاً حرفة البلاد من الزراعة إلى رعي الماشية ومن هذه إلى لا شيء. وإنّ هذا التطور الطبيعي ليفرض على الحياة البشرية أن تتبع هذه الدورة الجهنمية ونتيجة هذا التكيف تظهر في النهاية في صورة حياة اجتماعية راكدة «¹. فيصبح

الفرد كسولاً دون همة، مستصعباً لأسهل الحلول وإن تعلق الأمر بغرس شجرة.

لن يتحقق لهذه الشعوب النصر على الصحراء إلا إذا تمكّنوا من الانتصار على أنفسهم الخاملة. فالتراب يرتبط بفعالية الإنسان، فلا قيمة له ولا يمكن تعمير الأرض إلا بالعمل الجماعي الجاد المثمر الذي يسير وفق خطة تبدأ بالسير ثم تزداد تعقيداً.

ج. مشكلة الزمن:

هو العنصر الثالث في نظرية الحضارة، وللوقت قيمة اجتماعية، فهو ثروة في يد الإنسان إن أحسن استغلاله كما يمكن أن يتحول إلى "عدم" إذا أُهدر ويرى

¹ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 141.

مالك أن الوقت عامل مؤثراً في الفكر والنشاط الإنسانيين وفي تكوين المعاني وتطوير الأشياء، يقوم المجتمع المنخرط في أي دورة حضارية بتكييف الوقت وتحويله إلى زمن اجتماعي مثمر حين يدرجه في تخطيط المشروعات الصناعية و الاقتصادية وتنفيذها بصفته ركيزة من ركائز إطار المشروعات وتحققها.¹

كما يشترط مالك من أجل تحقيق المشروعات أن تُنجز في أقصر وقت، وأن يحدد لها الحافز والغاية لتستوفي شروط الفعالية وهي أمور أدركتها بعض المجتمعات في حين غفلنا عنها نحن المجتمع المسلم الذي يقف عند حدود المعرفة السطحية للوقت « لأننا لا ندرك معناه ولا تجزئته الفنية، لأننا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة وثانية؛ ولسنا نعرف إلى الآن فكرة الزمن الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالتاريخ. «² ففن استغلال الوقت واستثمار الأفكار البناءة في تكوين المعاني و الأشياء هو السبيل إلى النهضة، إذ يرى مالك أن تخصيص نصف ساعة يومياً لأداء واجب معين من طرف عناصر المجتمع قادر على تحصيل عدد هائل من ساعات العمل لمصلحة المجتمع الإسلامي في جميع أشكالها العقلية والفنية والاقتصادية والمنزلية، ويمثل لذلك بالدولة الألمانية التي خلفتها الحرب العالمية الثانية مجرد حطام، فلما بدأ النشاط يسري في نفس الشعب الألماني في مستهل سنة 1948م، انبعث شعب من الموت و أنشأ أضخم

¹ - أنظر: مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص112.

² - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص146.

الصناعات، إذ فرضت الحكومة على الشعب الألماني نساء وأطفالاً ورجالاً التّطوع يومياً ساعتين بالمجان من أجل الصالح العام فقط.¹

¹ - نفس المصدر، ص 147 / 148.

أ- مصطلحات الإقلاع الحضاري في فكر مالك بن نبي :

اهتمّ مالك بحالة الرّكود الحضاري التي يعيشها المجتمع الإسلامي و غالبا ما دعاها بالمرض الذي يشمل الاستعمار و الأمية و التخلف و الكسل ... وما فتئ المفكّرون و المصلحون يتبارون في اقتراح أسلم طرق العلاج و أنجعها لكن دون جدوى -حسب مالك- لأن التشخيص لم يتناول حقيقة المرض بل تحدّث عن أعراضه، فنتج أنهم لا يعالجون المرض "وإنما يعالجون الأعراض وقد كانت النتيجة قريبة من تلك التي يحصل عليها طبيب يواجه حالة مريض بالسّل الجرثومي، فلا يهتم بمكافحة الجراثيم ،وإنما يهتم بهيجان الحمّى عند المريض¹ من أجل هذا عمد بن نبي إلى تبني نظرية في الحضارة قدّم من خلالها إستراتيجية متفردة في التجديد و التغيير الحضاري ، فكانت إبداعا فلسفيا و علميا لا نظير له لما تفرّدت به هذه النظرية "من دقة في طرح المشكلات و حصرها، و عمق التحليل و موضوعية في التصورات و التفسيرات و تنوع في المناهج و الأساليب ، فجاءت نظريته فلسفية و علمية أخذت من الفلسفة القدرة على المشكلة و التحكم في التصورات و المفاهيم و القدرة على الاستشهاد و تبرير النتائج ، و أخذت من العلم الدقة في الطرح و الموضوعية في التحليل و انتهاج مختلف مناهج البحث العلمي²

¹ - مالك بن نبي : شروط النهضة ص 45

² - بوبكر جيلالي : موقع فكر مالك بن نبي في خطى الإصلاح و فلسفة التاريخ www.almeshkat.net

كما احتوت مصطلحات تدور حول معنى الإقلاع و البناء الحضاري ، وظّفها

مالك بن نبي توظيفاً دقيقاً و ترجم عبرها أفكاره للخروج بالعالم الإسلامي من حفرة

التخلف ، و الدخول ضمن دورة حضارية جديدة من بينها :

• التغيير في فكر مالك بن نبي :

التغيير لغة مفهوم مشتق من الفعل "غَيَّرَ" والتي يدور معناها في اللغة على

أصلين هما:

- إحداث شيء لم يكن قبله.

- انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى¹.

- من الأصل الأول :

"غَيَّرَهُ" جعله غير ماكان، و "غَيَّرَهُ" حَوَّلَهُ و بَدَّلَهُ

- من الأصل الثاني:

"الغَيَّرَ": أي تغيّر الحال و انتقلها من الصلاح إلى الفساد².

و التغيير في منهج المعرفة الإسلامي هو سَنَة إلهية كلية تضبط حركة الوجود

الشامل للطبيعة المسخرة و الإنسان المستخلف.

¹ - انظر على بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني :كتاب التعريفات ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ط 1 ، 1983.

² - انظر : محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، دار صادر بيروت ط 3 ، 1414هـ

قال تعالى : " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا

الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.¹

و قال تعالى " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.²

غير أن التغيير كقانون نوعي يضبط حركة نوع معين من أنواع الوجود ، هو

الذي يحدد لنا شرط فعالية التغيير كقانون كلي فيه ،فهو يأخذ شكل تحوّل بدون

إضافة في الطبيعة المسخرة (تغيّر) كما في الآيتين الأولى و الثانية.

كما يأخذ شكل تحوّل من خلال الإضافة عند الانسان المستخلف (تغيير) كما في

الآيتين الأخيرتين³.

فالتغيير إذن حتمية طبيعية لا إرادية أساسها التحول من حال إلى حال كتغيير الفصول

و توالي الليل و النهار كتغيير مراحل النمو لدى الحيوان و الإنسان و النبات.

أما التغيير فهو فعل إنساني ،إرادي أساسه التحوّل من حال سيئة إلى حال

أحسن أي من وضعية المشكلة إلى وضعية الحل ،و صياغة الحل تعتمد على

نمط التفكير و أسلوب عمل الإنسان و مدى إلتزامه بمبدأ الإصلاح و الإستمرار

فيه إستهدف بن نبي "الجزائر" محورا لهذه العملية الحضارية، إذ كتب سلسلة من

¹ - الآية {12-14} سورة المؤمنون .

² - الآية{53}سورة الأنفال .

المقالات بالفرنسية تحت عنوان "من أجل تغيير الجزائر" جمعها الأستاذ نور الدين بوكروح ،و في هذه المقالات "تقرأ عن بن نبي المؤسس لمنهج يدعو الشباب إلى المزيد فيه ،و تعديل في تفاصيله ،و تصويب لما كان قد اتكأ عليه فكره من أمثال طرحتها المرحلة التي كُتبت فيها تلك المقالات ،ثم جاء الزمن يكشف زيفها¹.

يدور مفهوم التغيير عند مالك بن نبي حول حركية دائمة ،ذات مسار تصاعدي بأدوات و طرائق و أساليب مستحدثة أصلها الابتكارات المادية و الفكرية للخروج من حالة التخلف و الضياع إلى حالة التطور و الإستقرار .

إن التغيير عند مالك أمر حتمي تفرضه طبيعة الحياة فإما التغيير نحو الأفضل أو الزوال.

و التغيير مرحلي ذو طبيعة انتقالية لا يحدث فجأة إنما تدريجياً ،وقد تختلف مراحله من جيل إلى جيل حسب عمق المشاكل و إرادة التغيير .

في الواقع قلما تحدث مالك عن تغيير واحد ،بل " تغييرين "طبقاً للآية الكريمة :

" إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ "².

إذ يرى ترابطاً قوياً بين التغييرين (تغيير الله لخلقهم ،وتغيير القوم لأنفسهم).

¹ - مالك بن نبي ، من أجل التغيير ، ص7 (مقدمة لعمر المسقاوي)

² - سورة الرعد الآية 11.

"فإذا وقع التغيير الذي يخلقه الله ،دلّ ذلك قطعاً على أن التغيير الذي يقوم به القوم قد سبق أن حدث ،لأن الله تعالى اشترط هذه الأسبقية ولكن علينا أن ننتبه إلى أن هذا التعهد إنما هو مجال القوم لا في مجال الفرد"¹.

تحدث مالك عن مؤامرة الصمت التي قام بها الغرب في سبيل إقصاء العطاء الحضاري الإسلامي ،و ذلك من أجل ترسيخ القناعة بأحادية الغرب ومركزية سلطته ،فرأى أن جميع الوسائل قد اتخذت لمحو الحضارة الإسلامية من سجل التاريخ ،من أجل ذلك زوّر الكتاب الغربيون التّاريخ حتى ظهر في عيون من أخذ عنهم أنّ التاريخ البشري ليس تلك السلسلة التي تتصل فيها جهود الأجيال ،و إنّما في نظرهم تلك المسافة المختلة التي تبدأ من الأكروبول في أثينا و تنتهي عند قصر شايبو بباريس².

غير أنّ ابن نبي قد أيقن أنّ مهمة إنقاذ العالم هي رسالة الإنسان المسلم ،رغم إمكاناته الحضارية الضحلة ، فالإسلام مازال قادراً على صنع رجال يمشون عبر التاريخ مستخدمين التراب و الوقت و المواهب من أجل بناء أهدافهم وغاياتهم الكبرى ،تماماً كما حدث مع الرعيل الأول من صحابة رسول الله -صلى الله عليه و سلم- هؤلاء الفقراء الأميين ،الذين تخلّصوا من شعور الدونية ،رغم رقة أحوالهم "لأنّ الإمكانات الحضارية المتكدسة ،بإرادة حضارية تفوق كثيراً ما تبقى منها لدى المجتمعات المتحضرة في ذلك العصر ،كذلك الحال اليوم لو أننا عقدنا

¹ - سعيد جودت : حتى يغيروا ما بأنفسهم ،تقديم مالك بن نبي ،مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري ،دمشق ،ط8 ،1989 ،ص79.

² - انظر مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص153 .

مقارنة ، فليس أذن من الصعب أن يقوم هذا المسلم الفقير الأعزل ،هذا المسلم الذي يضحي بمصالحه الكبرى حتى في هيئة الأمم ،أن يقوم رغم ذلك و بفضل إسلامه فقط بمهمة الإنقاذ¹.

لأن الإسلام أتى بكلّ المبررات الكفيلة بالوصول بالإنسان المسلم إلى أقصى حدود التوتر في طاقته الاجتماعية، لتتحقق بذلك مجموعة شروط ،تتلخّص في أمرين هما الاقتناع و الإقناع ،والشرطان كلاهما لا يجدان سبيلا للواقع، إلّا بتحقيق شرط جوهري هو التغيير ،فيغير المسلم ما بنفسه، ثم ما في محيطه ،عندها "نستطيع أن نتكلم على وسائل الرسالة أو الطرق العلمية لتطبيق هذه الرسالة كي تفي بمهمتها، ألا و هي الإنقاذ أو مواجهة حالة إنقاذ أو حالة طوارئ تخصّ المسلم و تخصّ الإنسانية عامة"².حيث يتعرف الإنسان على نفسه طاقاته،و غاياته، ثم يتعرف على غيره ،دون تعال أو كبر ،و دون قابلية للإستعمار ، ليعترف به غيره ، ويثق فيه.

فالإنسان إذن هو محرك عملية التغيير حسب المقولة الرئيسية الحكيمة لمالك بن نبي "إذا تحرك الإنسان تحرك التاريخ ،و إذا سكن، سكن" لأن -أصلا- أزمة العالم الإسلامي -عند مالك بن نبي- هي أزمة وعي بالأساس ، تظهر من خلال أزمة إدراك الإنسان المسلم للمشاكل و القضايا التي يعاني منها العالم الإسلامي . لذا يدعو بن نبي الإنسان المسلم إلى إدراك العالم من حوله الذي أصبح يعتمد على العلم و التخطيط في رسم حاضره و مستقبله و أن يستتبط هذه المعطيات

¹ - أنظر مالك بن نبي :مجالس دمشق ، ص 180.

² - نفس المصدر ، ص 186 .

حتى يسترد وعيه و ينتبه لمدى تخلفه عن أداء رسالته ،التي وجب تجديدها من خلال :

أولاً: إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية و توجيهها عن طريق تنظيم تعليم القرآن لدفع الحياة الكامنة فيه كما لو كانت جديدة نازلة من فورها من السماء.

ثانياً: يجب تحديد رسالة المسلم الجديدة في العالم حسب المعطيات و الفروقات الأخلاقية التي تميّز الشعوب عن بعضها .

أي بمعنى إستعادة الإنسان المسلم وعيه بالحضارة كشرط أساسي لدخول مرحلة الحضارة مرة أخرى .¹

لأنه قادر على أن ينهي كل مظاهر التّخلف الفكري و الديني و الثقافي و الإقتصادي و الاستعمار و القابلية له إذا تمسّك بالقاعدة القرآنية التي تدعو إلى التغيير على المستوى الذاتي الباطني أولاً ثم على مستوى العالم الخارجي.

• النهضة في فكر مالك:

جاء في لسان العرب أن "النُّهُوضُ: البراح من الموضع و القيام عنه. نَهَضَ يَنْهَضُ، نَهَضاً و نُهَوْضاً و انتَهَضَ أي قام

و انتَهَضَ القوم و تَنَاهَضُوا: نَهَضُوا للقتال استنَهَضَته لأمر كذا : إذا أمرته بالنهوض له، و نَاهَضَتْهُ أي قاومته ...و النُّهْضَةُ: الطاقة و القوة ،و أنْهَضَهُ

¹ - حسان عبد الله : العامل الأساسي للتغيير بين مالك بن نبي و علي شريعتي / islamonline.net/

بالشيء : قواه على النهوض به ،والتأهض: الفرخ الذي استقل للنهوض ، و قيل هو الذي وفر جناحاه و نهض للطيران ،و قيل هو الذي نشر جناحيه ليطير¹.

وتجمع القواميس الأوروبية على أنّ النهضة أو الميلاد الجديد « La

Renaissance هي الفترة الانتقالية من العصور الوسطى إلى العصور

الحديثة في أوروبا ،قد انعكست مظاهرها و آثارها على الفنون و الآداب و العلوم و الأخلاق و

أما في العالم العربي ،فلقد أُطلق مصطلح "عصر النهضة" على الفترة الممتدة من حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر ،إلى أواخر القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين ،و تمتلّت مظاهرها في إحياء التراث العربي و الإهتمام باللغة العربية.

أما مفهوم النهضة في فكر مالك بن نبي ،فهو مماثل لمفهومها في المعطى الغربي أي "ولادة جديدة" ،أهم شروطها "إعادة النظر في التراث القديم بعد تصفيته من سائر مؤثرات الحضارة الإسلامية التي أفلت بعد سقوط الأندلس"².

يرى ابن نبي أنّ النهضة مصطلح حديث "استعمل مع بداية القرن التاسع عشر ،حيث ورد من إيطاليا كمصطلح عمّ أوروبا ليشير إلى حركة تجديد واسعة ،شملت الفنون و العلوم و إحياء تراث الإغريق و الرومان . كما تجلّى في القرنين

الخامس عشر و السادس عشر -أي مصطلح Renaissance- إعادة إحياء

¹ - ابن منظور : لسان العرب ، المجلد 6 ، ص 456 .

² - عمر مسقاوي : مالك بن نبي ، مفكر ، شاهد و مشروع متجدد ، www.binabi.net

واقع تاريخي محدد المعالم و الصفات ،كامل الوجود و المقومات ،ينسحب من عمق التراث اليوناني و الروماني¹.

تزامن هذا الميلاد الجديد في أوروبا المشبع بفكرة بعث أوروبا من جديد، كنموذج راق ، يقتدى به بفترة استعمار العالم الإسلامي و انهيار مقوماته الحضارية .لهذا كان على مالك بن نبي المسكون بحلم انبعاث الحضارة الإسلامية و نهضتها في دورة جديدة، أن يرسم معالمًا لطريق هذه النهضة ،و يضع لها شروطا وضوابط
تبدأ باختيار العالم الإسلامي لوجهته الحقيقية ،لا كما تفرضها الظروف العالمية و لكن عليه اختيار الوجهة التي تلائم المهام الإستراتيجية المنوطة بالأمّة كلّ.

و من أجل دخوله في دورة حضارية جديدة ،يؤكد بن نبي على ضرورة إدراك المجتمع المسلم لقواعد التغيير و النهضة و الوقوف على أسباب الانحطاط و التخلف ثم البدء بالتخطيط الحقيقي و الفعّال و غير المستورد الذي يفقد معناه التقني "إبتداءً من اللحظة التي تكون فيها فكرته الرائدة مستوحاة من الخارج .فهذا لا يكون تخطيطاً و إنّما مجرد مهارة ،كمهارة البقال الذي يملأ رفوفه بما تمليه متطلبات زبائنه و أهوائهم².

لهذا أجمل بن نبي أسباب الضعف الفكري للنهضة العربية في الفترة ما بين 1868 و 1905:

1 - عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصا صحيحا.

2 - عدم تشخيص صورة النهضة بصورة واضحة.

¹ - عمر مسقاوي: مالك بن نبي ،مفكر ،شاهد ،و مشروع متجدد www.binabi.net

² - مالك بن نبي من أجل التغيير ، ص 33.

3 عدم تحديد الوسائل تحديدا يناسب الغاية المنشودة و الإمكانيات.

بالإضافة إلى سوء التخطيط ،يحلل مالك بن نبي شروط نهضة الأمم ،و يربط

أحدها بالآخر غير أنه يقف مطولات في زمن و كيفية الاقتباس من الآخر .

إن طبيعة إنسان ما بعد الموحدين ، الهشة ،المستسلمة و الضعيفة ،لم تع كيف

تتعامل مع الآخر من أجل نهضة حقيقية ،فانتقل المجتمع المسلم و بطريقة مبهمة

و سريعة من مرحلة إقتباس أفكار "الآخر" لإقامة حضارة خاصة به إلى مرحلة

الإنبهار و الذوبان في الثقافة الغربية ،فكان نتاج ذلك بعد قرن من الزمان ليس

غير مجتمع ذي نموذج متخلف ،انكبّ يبني مدرسة في مكان ،و مصنعا في

مكان آخر ،و يطالب بالإستقلال في مكان ثالث¹،فتشتت جهوده و ذهبت أدراج

الرياح و كانت النتيجة أبعد ما تكون عن النهضة.

لا يعزو بن نبي المشكلة إلى طبيعة الثقافة الغربية ،بل بالطبيعة الخاصة بعلاقة

المسلم بها ، و يستشهد بالتجربة اليابانية التي تزامن انطلاقها مع بداية حركة

النهضة في العالم الإسلامي ،فالمجتمعان قد تتلماذا سوية حوالي عام 1860 في

مدرسة الحضارة الغربية ،غير أن الفرق الشاسع بين المجتمعين أنّ الأفكار

المميتة التي اقتبستها اليابان من الحضارة الغربية لم تصرفها عن طريقها ،فقد

بقيت وفيّة لثقافتها ،لتقاليدها ،لماضيها².

¹ - أنظر مالك بن نبي :تأملات ،ص186.

² - أنظر :مالك بن نبي :مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،تر: بسام بركة و أحمد شعبو ،دار الوعي ،الجزائر ،2013،ص151.

في حين يعيش المجتمع الإسلامي فوضى في ميدان الفكر و الأخلاق و السياسة ،فَقَدَ من خلالها هويته الأصلية لتشبهه بأفكار مستعارة ،يتعاضد خطرهما كلما انفصلت عن إطارها التاريخي و العقلي في أوروبا. لهذا يجزم مالك أن تصفية الأفكار الميتة¹ و تنقية الأفكار الميتة² يعتبران الأساس الأول لأية نهضة حقبة³.

• التنمية في فكر مالك بن نبي :

التنمية مصدر للفعل "نمى".

و التنمية هي كافة التغيرات الهيكلية التي تحدث في المجتمع بأبعاده المختلفة من إقتصادية و سياسية و إجتماعية و فكرية و تنظيمية من أجل توفير الحياة الكريمة لجميع أفراد المجتمع⁴.

و هي مصطلح حديث الولادة، إذ عُرف خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ،و خصّ الجانب الاقتصادي ثم زاد انتشاراً في سنوات الخمسينات و الستينات⁵ ، و يقصد به تنشيط الاقتصاد الوطني و تحويله من حالة الركود و الثبات إلى حالة الحركة و الديناميكية عن طريق زيادة مقدرة الاقتصاد

¹ - لأفكار الميتة :هي الأفكار التي خلفها مجتمع مابعد الموحدين إذ انحرفت عن مثلها الأعلى ،و ليس لها جذور في العصارة الثقافية الأصلية كالتقاليد للإستعمار

² - الأفكار الميتة : أفكار مستعارة من الغرب ، فقدت هويتها و قيمتها الثقافية ، بعد ما فقدت جذورها التي بقيت في مكانها في عالمنا الثقافي الأصلي .

³ - أنظر :مالك بن نبي :وجهة العالم الإسلامي ،ص 74/73 ..

⁴ - أنظر : أحمد مختار عمر :معجم المعاني الجامع ،عالم الكتب ،القاهرة 2008.

⁵ Bernard Billaudot /le développement et croissance.Bernard Billaudot@upmfgrenoble.fr

الوطني لتحقيق زيادة سنوية ملموسة في إجمالي الناتج الوطني مع تغيير في هياكل الإنتاج و وسائله و مستوى العمالة و تزايد الإعتماد على القطاع الصناعي و الحرفي.¹

و من أجل إحداث تنمية حقيقية و مثمرة لابدّ أن تسبقها نهضة إجتماعية تمهّد لها السبيل و تيسّر الأسباب، فالنهضة هي مفتاح الحراك الإجتماعي لعصرنا نحو الفاعلية الحضارية، في حين يقتصر مفهوم التنمية في الفكر الأوروبي على الجانب الإقتصادي و مؤشرات، إلا أنّ السعي نحو الحضارة يشملهما معاً، أي يشمل عملية الحراك النهضوي و يشمل عملية التنمية الإقتصادية من أجل إحداث فعل حضاري.²

أما مالك بن نبي، فيرى أنّ التنمية تغيير شامل، مستمر لجميع الجوانب و الأنشطة، وفق خطة مدروسة، أصيلة في انتمائها و كذا الوسائل التي توظفها في مخططاتها التنموية، لا اعتقاده الشديد أنّ أيّ مخطط يفكر فيه، بأفكار الآخرين، ونحاول إنجازه بوسائل غيرهم معرّض للفشل لا محالة³.

و من أجل تنمية اقتصادية تقضي على التخلف و تمكّن المجتمع الإسلامي من الدخول في إطار النمو الاقتصادي، يدرج بن نبي عناصر غير اقتصادية، يمتلكها الإنسان و يتحكّم في توجيهها كالقوة الأخلاقية المميزة للمجتمع المسلم دون غيره، إذ لا يمكنه دفع عجلة اقتصاده بالاختيار بين الرأسمالية و الشيوعية لأنه -حتماً- سيجد نفسه "أمام مشكلات فنية أو مذهبية أو على الأقل أخلاقية تضيف إلى متاعبه ما شاء الله، لأنه لا يجد لها حلاً في نطاق

¹ - أنظر: جاسم محمد سلطان: النهضة من الصحوة إلى اليقظة، إستراتيجية الإدراك للحراك، أم القرى للترجمة والتوزيع، مصر، ط4 2012 ص18.

² - نفس المرجع، ص 18.

³ - مالك بن نبي: المسلم في عالم الإقتصاد، ص 172.

اختياره في كلا الاتجاهين ،إلا على حساب مبادئه الأولية ،وبالتالي على حساب شخصيته و هويته من التاريخ¹.

من أجل تنمية اقتصادية حقيقية ، تنهي القابلية للاستعمار الاقتصادي و تحرر الفرد المسلم من قيود التبعية ،يراهن مالك على الإنسان كقيمة اقتصادية أولى بوصفه وسيلة تتحقق بها خطة التنمية،ونقطة تلاقٍ تلتقي عندها كل الخطوط الرئيسية في البرامج المعروضة للإنجاز كما فعلت الصين التي اعتمدت في تنميتها على الشعب فعوّضت بطاقته الحيوية الموجودة ،الطاقة الميكانيكية المفقودة ،الأمر الذي جعلها رائدة العالم الثالث في توظيف الإنسان و التراب و الزمان .

و الإنسان الذي يمارس هذا العمل المشترك من خلال ما يتحقق على يديه في المزرعة و المصنع يذوب في مفهومه المستحيل و تزول من نفسه العقد، فليس بمقدور العالم الإسلامي أن يغيّر أوضاعه الإقتصادية إلاّ بقدر ما يطبق خطة تنمية تتفق و أبعاده النفسية ،و تخلصه من آثار عصر ما بعد الموحدين².

• الفعالية في فكر مالك بن نبي :

اشتراط مالك في تحديده لمفهوم الفعالية الغوص في التاريخ للتمييز بين نظريتين متباعدتين لأحداث التاريخ.

• إحداهما :اعتبار التاريخ مجرد حوادث تتعاقب دونما ربط جدلي بينها ، و لا يد للإنسان في تغييرها ،فهو قضاء و قدر فلا يسعه إلاّ الازدعان و الإستسلام و مسايرة ظروفها.

¹ - نفس المصدر ، ص 42 .

² - أنظر مالك بن نبي :المسلم في عالم الإقتصاد ،ص 77/76.

و* ثانيهما :اعتبار أنّ الأسباب التاريخية كلّها تصدر عن سلوكنا و تتبع من أنفسنا لهذا
وجب السيطرة عليها قبل أن تسيطر علينا ،و ذلك بشد إرادة تغيير الأشياء تغييراً يحدد
بالضبط و طيفتنا الاجتماعية كما يبينها الله سبحانه و تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُوْمِنُونَ بِاللّهِ" ¹

بحيث يكون المعروف في أعمّ صوره ،و المنكر في أشمل معانيه جوهر الأحداث
التي تواجهنا يومياً.

فلكي يكون الإنسان فاعلاً في فكر بن نبي وحب أن يحدّد موقفه إزاء هذا
المعروف و هذا المنكر كصانع للتاريخ و محرك له ²، فهو -أي الإنسان- في
جوهره مكرم مميّزه الله عن سائر المخلوقات بعطايا متعددة ،غير أنّنا نجد في الحياة
أنساناً حياً يسيطر على الأحداث و يكتيفها حسب ظروفه و آخر ساكناً تسيطر
عليه الأحداث و توجهه أنّا شاءت ؛و هذا ما ربّبه مالك ضمن معادلتين "معادلة
تمثل جوهره كإنسان ،صنعه من أتقن كلّ شيء صنعه ، و معادلة ثانية تمثله
ككائن اجتماعي ،يصنعه المجتمع" ³.

و المعادلة الأخيرة هي التي تحدّد فعالية الإنسان بإيعاز من مجتمعه متى ما دخل
-هذا المجتمع- في وضع جديد يسميه مالك بحالة إنقاذ ،عندما يسود شعور
التوتر و القلق الذي يعتبره علامة الحياة الأولى، فإن الطفل يستبشر أهله بولادته

¹ - سورة آل عمران الآية :110.

² - أنظر :مالك بن نبي :تأملات ،ص 126/127.

³ - مالك بن نبي :نفس المصدر ،ص 131.

سليما حين يبكي" فنحن إذ يعترينا القلق في حياتنا ،نشعر بأننا قد ولدنا ولادة جديدة ،فقد عشنا قروناً طويلة لا نشعر فيها بأي قلق¹.

يمثل بن نبي لهذه الحالة بمجتمعين مختلفين عاشا طويلاً مستسلمين للإهانة و الإذلال إلى أن غمرهما شعور القلق و التوتر ،فانفجرت الطاقات المكبلة ،و تغير وجه التاريخ فيها هو المجتمع الإسرائيلي ،حيث كان فرعون يذيق أفرادَه ألواناً من العذاب ، فاستسلمت أنفسهم ورضوا بالوضع وهم كارهون و ظلّوا كذلك إلى أن جاءهم موسى -عليه السلام- فأنار قضية بني إسرائيل أولاً في أذهان بني جلدته ،و أثار معها حالة الخطر أو كما أسماها مالك حالة إنقاذ من وضع يسوده القلق الدائم ولا يمكن أن يشعر معه الفرد بالاستقرار و هكذا أيقن بنو إسرائيل بضرورة السير إلى حيث تدعوهم الأقدار،و رأوا في موسى ذلك المنقذ الذي بثّ فيهم روح القلق ،و صوّر لهم حتمية السير معه في الطريق فكان شعورهم بحالة الإنقاذ أقوى من غريزة المحافظة على الحياة ،فلم يتردّدوا في إقتحام اليم مستسلمين للخطر لاقتناعهم بالغاية التي يسировون إليها ،فحدثت معجزة شقّ الطريق وسط البحر.ثمّ يصور لنا مجتمع آخر معاصر هزّه الشعور بحالة الإنقاذ ،فأصبحت له غايات و كأنه يراها و يلمسها إنه الشعب الألماني الذي حقق جميع شروط حالة الإنقاذ بعد الحرب العالمية الأولى.

و هكذا -حسب منظور مالك بن نبي- تتطلق المجتمعات لتصبح فاعلة بعد أن كانت مقيدة معطلة ،حين تغمرها موجة من التوتر و القلق يجتاحها الشعور بحالة الإنقاذ ، فتتوضح غاياتها و تتحرر طاقاتها المعطلة لتغير بعدها وجه التاريخ.

¹ - مالك بن نبي :تأملات :ص 122.

• التجديد و الإصلاح:

التجديد مصدر للفعل "جَدَدَ، يُجَدِّدُ" أي صيّر الشيء جديداً وهو إما معنوياً كتجديد مناهج التفكير و طرائق التعلم، أو مادياً كتجديد المسكن أو الملابس، ونحو ذلك من الأمور المادية .

و يقصد بالتجديد اصطلاحاً الإحياء والبعث قال تعالى " أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ، بَلْ

هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ¹ . كما قال الرسول -صلى الله عليه و سلم- "جدّدوا

إيمانكم، قيل يا رسول الله و كيف نجدد إيماننا ؟ قال :أكثرُوا من قول لا إله إلا

الله "وقال أيضاً "إنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها"

أما الإصلاح فهو خلاف الفساد ،و يقال صلح الشيء إذا زال عنه الفساد ²، و قد

وردت لفظة الصلاح في القرآن الكريم على عدة وجوه ومن أشهر وجوه الإصلاح

في القرآن الكريم ،إصلاح ذات البين قال تعالى "و إِنَّ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا

فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا"(الحجرات :9)

و عكس الإفساد "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا "(الأعراف : 56) و إن

نُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا"(المائدة :129)

أما عن ماهية الإصلاح و التجديد فيرى بن نبي أن تيار الإصلاح قد ارتبط بالضمير المسلم، أمّا تيار

التجديد فهو أقلّ عمقا إذ يمثل مطامح طائفة اجتماعية تتلمذت في المدرسة الأوروبية و اعتنقت مبادئها

* سورة ق الآية :15.

² - المعجم الوسيط، ج 1، ص 520.

و نجم عن خلط رواسب قديمة لم تصف من طابع القدم و مستحدثات لم تتم تنقيتها ،عالمأ رأسه في عام 1949 و قدماءه في عام 1369 م، أي عالم متناقض متنافر تسوده الفوضى و التيهان¹.

و من رواد الإصلاح ،من يشيد بهم مالك بن نبي و يعترف لهم بمواقفهم المؤثرة

جمال الدين الأفغاني(1839-1879)،محمد عبده(1849-1905)، و ابن

باديس (1889-1940).

ويذهب إلى أنهم قد نجحوا في إزالة الركود الذي ساد مجتمع ما بعد الموحدين

حين واجه ضمير هذا المجتمع مأساة الإنحطاط و التخلف التي يعيشها منذ سنين

طويلة بتبني ثورات عديدة ،غير أنّ ثوراته -حسب مالك بن نبي- كانت "في

ظرف مغلق ؛في قنينة دعر في الكيمياء ،لا يدري قانوناً لتفاعل المادة في عملياته

،تلكم هي مأساه "الحركة" التي شاعت أن تتحرر من "السكون" ،مأساة الفكر في

نضاله ضد البلادة و القلق ؛ مأساة الرجل الذي استيقظ و لم يعرف بعد واجبه"².

كما يعيب على غلاة التجديد عدم الاهتمام بفكرة نهضة أمتهم ،فإن المسألة في

نظرهم لم تكن تجديد العالم الإسلامي و بعثه و إنّما انصب اهتمامهم على

إصلاح أوضاعهم السياسية الراهنة ،و هي فكرة كما يرى مالك بن نبي مستعارة

كبقية منتجات الحضارة الغربية .

لكن رغم انتقاده لحركة الإصلاح و التجديد يعترف بن نبي بنمو روح المبادرة التي

أخذت في التصاعد خاصة في الجزائر ،و يمثل بذلك ببلورة الوعي السياسي لدى

¹ - أنظر :مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي ص 69.

² - مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ،ص 77

النخبة المثقفة و التي "خلقت بما جلبت من الغرب تياراً من الأفكار ،صالحاً للمناقشة ،و إليه يرجع الفضل في أنه وضع على بساط البحث جميع المقاييس التقليدية"¹.

¹ - مالك بن نبي :وجهة العالم الإسلامي ،ص 66.

ب- المشروع الحضاري في فكر مالك بن نبي :

(من إنسان ما بعد

الموحدين إلى إنسان الحضارة ، معوقات و أفاق).

يرد بعد الباحثين أسباب بطئ حركة البناء الحضاري للعالم الإسلامي إلى التخلف و الفقر و الاستعمار ... في حين يراها مالك بن نبي مجرد نتائج للمشكل الكبير النابع من داخل الذات المسلمة ، فما فتئ المجتمع المسلم يقف من الغرب موقف الزبون مكثفيا باقتناء بضاعة أنتجها الفكر الغربي ، فهو لم يستطع بعد تنظيم اتجاهه نحو الحضارة لوجود عوامل تعطيل نفسية فكرية ، أهمها :

- عدم تشخيص غاية النهضة بصورة واضحة (فهي لم تتخذ من الحضارة غاية لها) .
- عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصا صحيحا .
- عدم تحديد الوسائل تحديدا يناسب الغاية المنشودة و الإمكانيات ¹.

إن العالم الإسلامي في مواجهته للاستعمار الأجنبي تبنى أيديولوجية نضالية غايتها الاستقلال ، فلما حصلت عليه جل دوله ، فقدت الباعثية لتحريك الطاقة الاجتماعية ، فأنحرف النشاط الفردي نحو الخصوصية و النزعة الفردية من جديد و تحددت الأزمة في أن الشعوب تملك استقلالاً و تملك مشاريع عمل ، لكنها لا

¹ - انظر : مالك بن نبي ، تأملات ، ص 186 .

تملك أيديولوجيا¹ ، الأمر الذي أوقعها في شبكة استعمار جديد ، استسلمت له طواعية ، فسلبها خيراتهما و شوش أفكارها دون أن يطلق رصاصة واحدة .

فكان مالك بن نبي من بين المفكرين و المصلحين الذين أخذوا على عاتقهم تنقية أفكار الأمة و تقويم اعوجاجها ، باقتراح جملة من المشاريع النهضة التي ستؤدي بدورها إلى بناء المشروع الحضاري العام ، و هي مشاريع متكاملة لا يمكن أن يعوض أحدها الآخر أو يلغيه و هي متصلة بمدى كفاءة الفرد و فعاليته فراهن على المشروع الثقافي ، حيث لجأ إلى تفكيكه إلى عناصر أصلية :

1 - عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الإجتماعية .

2 - عنصر الجمال لتكوين الذوق العام .

3 - للمنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام .

4 - عنصر الصناعة للمحافظة على كيان المجتمع و استمرار نموه .

كما بشر بمشروع اجتماعي همه خلق مجتمع النهضة ، مجتمع مسؤول يقوم بوظائفه التاريخية نحو الفرد ، فيحفظ كيانه و يكفل راحته ، مجتمعا غنيا بأفكاره وشبكة العلاقات التي تربط أفراداه .

فلقد هزم الإسبان مسلمي الأندلس و كانوا أفقر منهم أفكارا ، لكنهم أقوى

من حيث شبكات العلاقة الاجتماعية ، لهذا يؤكد مالك بن نبي على أهميتها

يعدها معيارا لقياس مدى تطور المجتمع و التحامه ، فأما يكون المجتمع في ذروة

¹ - أظر : حمودة سعيدي : مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي ، جامعة الجزائر ، الجزائر ، 1980 (رسالة ماجستير) ص217 .

نموه فيكون الفرد مرتبطا بمجموع أعضاء المجتمع ، و إما يكون المجتمع متفسخا ، لا رابط بين أفراده ¹ كما يشترط مالك بن نبي وجود فكرة دينية تحرك المجتمع و تسهم في نهضته فكرة ليست دخيلة ، إنما تتبع من حياة الفرد و تنظم أدق تفاصيل يومياته على عكس ما يعانيه مجتمع ما بعد الموحدين من انفصال سلوكه في الشارع عن سلوكه في المسجد ، إذ يشبه مالك بن نبي هذا الانفصال ب"الدش الإسكتلندي" "لأنهم يصبون منه ماء ساخنا ثم يتبعونه ماء باردا"².

بحث مالك بن نبي في الشروط الواجب توفرها لإحداث التوازن الاقتصادي في نظام المجتمع الإسلامي فأرسى بذلك قواعد مشروع اقتصادي واعد ، حدد له تقسيمين منهجيين ، أحدهما مرحلي يعنى بالمجال الزمني لتحديد الخلل و ممارسة العلاج .

و ثانيهما يخص طبيعة الأدوات المستعملة في العلاج و مجالات ممارستها على أن يختار المجتمع خط سير اقتصادي يتلاءم و مقوماته الحضارية لأن "أي مشروع نفكر فيه بأفكار الآخرين ، و نحاول إنجازه بوسائل غيرهم معرض للفشل لا محالة"³.

لحصار ثمار هذه المشاريع (الثقافية ، الإجتماعية ، الإقتصادية) رسم مالك بن نبي ضمن سلسلة كتبه "مشكلات الحضارة" خطة سير نحو مشروع حضاري شامل ، حدد لها خطوات عملاقة و جملها في :

¹ - أنظر : محمد شاويش : مالك بن نبي و الوضع الراهن ، دار الفكر ، دمشق 2007 ، ص 32 .

² - أنظر : عمر عبید حسنة : معادلات الإقلاع الحضاري عند مالك بن نبي library.islam.net .

³ - مالك بن نبي : بيت الرشاد و التيه، ص 172 .

• من التكديس إلى البناء : التكديس ظاهرة ملازمة لمراحل الانحطاط

تتلاشى أثناء محاولات اليقظة و السير في طريق النهضة فهي عملية عشوائية فوضوية غير منظمة ، دون آليات و دون غاية أو هدف منطقي في حين يقوم البناء الفكري على التخطيط و التنظيم ، حددت له أهداف و وظفت من أجله معارف و علوم .

تحدث مالك بن نبي عن ثنائية التكديس و البناء فحارب الحد الأول من الثنائية و اعتبره صفة غير حضارية في حين احتفل بالبناء و تطلع إلى إرساء قواعده في نهضة المجتمع المسلم .

ليس خافيا الشأن الرفيع و الأهمية القصوى التي خص بها مالك بن نبي دور الإنسان المميز في بناء الحضارات و تطويرها ، لكنه إشتراط محيطا إجتماعيا متناسقا متماسكا ، فهو - أي الإنسان - لن يستطيع العيش بجهد الخالص بعيدا عن مجتمعه لكن أي نوع من المجتمعات يقصده بن نبي ؟

و كيف تتحدد مسؤوليته من أجل مشروع البناء الحضاري؟

إن "التكديس" ظاهرة لمسها مالك بن نبي في جوانب عديدة من حياة المسلمين و سلوكهم ، بداية بتكديس الأفراد ، حيث تخلق المجتمع عن وظيفته تجاههم فعاشوا ضمن تجمعات ، رفع عنها بن نبي تسمية " مجتمع " فهي لا ترقى سوى أن تكون تجمعا بشريا أو بقايا مجتمع . لأن المجتمع الحقيقي هو " الذي يقوم بوظيفته التاريخية ، المجتمع الذي يقوم بوظيفته نحو الفرد و يحقق راحة الفرد فإنه

لابد أن نفهم معناه فهما دقيقا ، فهو ليس عددا من الأفراد و إنما هو شيء خاص ، هو بنيان و ليس بتكديس من الأفراد " ¹.

و يستشهد مالك بن نبي بأطرف مجتمع تتمثل فيه خاصية البنيان ألا و هو مجتمع "النحل" إذ نرى أن النحلة لا يمكنها العيش بعسلها و جهدها الخاص ففي انفصالها عن الخلية تحكم على نفسها بالموت ، مهما يكن في الطبيعة من زهور ، لأن الله عز وجل قد ربط كيانه بهذا المجتمع ، و أودع في غريزتها سر الحياة الاجتماعية ² ، المثمرة فإيمان الأفراد بحاجة بعضهم إلى البعض الآخر و الترابط الذي ينتج جراء هذه الثقة هو ما يخلق مجتمعا لا تكس أفراد لا يحملون هم تطور النوع و رقيه ، و هو أمر تنبعت له دول أوروبا و رأت أنه من الحكمة العودة إلى وحدتها الأولى ، الوحدة التي كونت الحضارة الغربية فلا وجود لـ "حضارة فرنسية و لا حضارة إنجليزية و لا حضارة إيطالية ... بل هناك حضارة أوروبية و بالأحرى نقول حضارة مسيحية ، فالحضارة شروطها المجتمع الغربي - المجتمع الأوروبي - لذا فالسفينة لم تغرق أما إذا غرقت أوروبا فإن السفينة تغرق كلها " ³.

لهذا ينبه مالك بن نبي أفراد المجتمع المسلم من الاستمرار في العيش - التكس - ضمن دويلات تستقل باقتصادها و مواقفها السياسية بل و بعاداتها و تقاليدھا متسائلا لماذا فشل المجتمع الإسلامي أمام دويلة آل صهيون ليحجب "

¹ - مالك بن نبي ، تأملات ، ص 155 .

² - انظر : نفس المصدر ، ص 155.

³ - مالك بن نبي مجالس دمشق ، ص 62.

أن المجتمع الإسلامي وهن أمامها مرتين لماذا ؟.. لأنه تفرق ، لأنه تمزق ، لأن كل دولة اعتبرت ميناء مستقلا " ¹.

ثم يتجاوز مالك بن نبي تكديس الأشخاص إلى تكديس الأفكار من خلال الإسراف اللغوي الذي لا طائل منه " فلکم نظمنا من قصائد جميلة حول نهضتنا في الوقت الذي كانت فيه اليابان تتوج نهضتها بانتصار أراق ما لا يستهان به من المداد في أوروبا ، حيث كان "غليوم الثاني " يتحدث عن الخطر الأصفر " و على "الرجل المريض" ² فبدل أن تصبح "الكلمة" سيفاً للدفاع و معولاً للبناء أصابها الهوان هي الأخرى ، فكان الجيل الذي عاصر أو قرأ "كتاب" الإفلاس الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق " لمؤلفه التركي "أحمد رض" أو كتابات "شكيب أرسلان" كانوا في الحقيقة يقرؤون أعمالاً للدفاع و التبرير ، وليس أعمالاً للبناء و التوجيه " ³. فبدل أن ترسي الجهود الذهنية قواعد متينة لبناء منهاج منسجم و مذهب دقيق للنهضة ، انشغلت بمجادلات جانبية و مواجهات دفاعية بدل أن تركز على نقائص المجتمع الإسلامي نفسه و تهتم بالتخطيط .

حيث تتمزق خيوط شبكة العلاقات الاجتماعية و تنهوى العلاقات بين العوالم الثلاثة (أشخاص ، أفكار ، أشياء) تظهر آفة "تكديس الأشياء" من خلال لم منتجات حضارات أخرى ، اعتقاداً بأنه السبيل الأقصر للعيش ضمن مجتمع متحضر ، و غاب عن الأذهان أنه يستحيل على مجتمع مستورد شراء كل

¹ - مالك بن نبي مجالس دمشق ، ص 63.

² - مالك بن نبي القضايا الكبرى ، ص 53 .

منتجات حضارة ما ، من حيث الكم و الكيف ، فللحضارة منتجات مادية لكن لها روح و أفكار و ذوق خاص بها ليس للبيع "ما يستورد لا يبني حضارة حقيقية إنما حضارة 'شنيئة' ".¹

عندما يصبح البناء ضرورة و أساس أي نهضة في الوجود و جب أن تلد الحضارة منتجاتها " و سيكون من السخف و السخرية حتما أن نعكس هذه القاعدة حيث نريد أن نصنع الحضارة من منتجاتها "¹

لأن أي منتج حضاري هو حصيلة تآلف بين العناصر الثلاث إنسان ، تراب و وقت .

كيف بالإمكان إذن تجاوز مرحلة التكديس و التشافي من بقايا حضارة انتهت ؟

- تعيش شعوب العالم الإسلامي - بعد حصولها على الإستقلال السياسي -
- حالة توتر و مخاض لم يهدأ بعد ، في رحلة بحث عن مخرج من اوضاع التقهقر الحضاري التي تعانيها . فسعى المفكرون و المصلحون في محاولة لتشخيص الداء و البحث عن حلول و العلاج فتعددت أطروحاتهم الفكرية و مشاريعهم الإصلاحية ، بعضها في الدعوة و تجديد الإسلام ، و بعضها في الإصلاح السياسي ، بعضها تجند لإحياء التراث الثقافي و بعضها زواج بين هذه المدارس ... لكن مشروعا حضاريا فريدا متميزا برز في منتصف القرن العشرين على يد عملاق الفكر الإسلامي مالك بن نبي " الذي أظهر تفاؤلا ناحية هذا التوهان

¹ مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 1 .

و التوتر الذي تعيشه الأمة ، و بشر بحقبة تاريخية جديدة ، إذا أخذ الإنسان المسلم بأسباب النهوض ، فالولادة الصحية حتما صعبة و مؤلمة .

إن مرحلة دخول العالم الإسلامي في دورة حضارية جديدة أي من الانتقال من التكديس إلى البناء ، لا تتحقق بمجرد الرغبة في ذلك بل الأمر مهول و يستدعي آليات عقلية و فكرية هامة ، خاصة حين يتعلق الأمر بحضارة في طور التشكل ، ليس لها حظ إستعارة كل منتجات الحضارات التي سبقتها

ـ هي قائمة اليوم – لأن " أي حضارة لا يمكن أن تتبع جملة واحدة الأشياء التي تنتجها و إذ لا يمكن أن تبيعنا روحها و أفكارها و ثرواتها الذاتية و أدواقها هذا الحشد من الأفكار و المعاني التي لا تلمسها الأنامل ، و التي توجد في الكتب أو في المؤسسات ، و لكن بدونها تصبح كل الأشياء التي تبيعنا إياها فارغة دون روح و بغير هدف " ¹.

فلكي يتحول التكديس إلى بناء لابد من الوقوف على مشكلات الحضارة التي تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية : مشكلة الإنسان ، مشكلة التراب ، مشكلة الوقت

فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات ، و إنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها .

¹ مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 77.

• من استيراد الحلول إلى صنعها :

تحدث مالك بن نبي في جل كتبه عن إنسان ما بعد الموحدين و هي الفترة التي يؤرخ بها بن نبي إلى نقطة الانكسار التي أصابت الإنسان المسلم ففقد قدرته على الإبداع و عجز عن تطبيق مواهبه على التراب و الوقت ، ليبدأ بذلك عصر الانحطاط ، فانهارت حضارة عظيمة ، و دخلت شعوبها نفق " الجمود و انعدام الفاعلية ، حتى لقد تحولت الحقائق الحية التي شكلت فيما مضى وجه الحضارة الإسلامية إلى حقائق خامدة مدفونة في جمل رائعة و علم غزير ¹ .

و شيئاً فشيئاً تعطلت قوى الإنسان المسلم ، و تراجعت ثقته في نفسه و دخل في حالة " القابلية للإستعمار " فأصبح " الآخر " مصدر القوة و الإلهام فاتبعه شبرا بشبر و باعا بباع ، و تبنى خطته الإقتصادية و الأيديولوجية حتى بعد حصوله على الإستقلال السياسي ظل الأمر على مكان عليه إذ " قد تتغير خريطة توزيع الملكية في الوطن ، و قد يسند إلى أبناء الوطن وظائف كان المستعمرون يشغلونها ، و قد تستبدل بالحروف اللاتينية حروف عربية على واجهات و لافتات الحوانيت ، إلا أن التغييرات هذه جميعها تصبح مجرد سحر للأبصار و لا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه ² .

إن الحضارة تميز و إبداع ، و حينما تخضع لسلطان التقليد و التبعية تلفظ أنفاسها و تندثر ، لا ينفي مالك بن نبي أن تقوم أي حضارة في مراحلها الأولى

¹ - مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ص53 .

² - مالك بن نبي : بين الرشاد والتهيه ، ص51 .

على موروث حضارات سابقة ، لكنه يلح على ضرورة تحررها الفكري في مراحل لاحقة ، لتبرهن عن تميزها و وجهتها .

إن الوقوف عند أي مشكل حضاري يستدعي معالجته في بيئته و مناخه و بأدواته الخاصة ، لأن أي حل مستورد يفقد معناه التقني إبتداء من اللحظة التي تكون فكرته الرائدة مستوحاه من الخارج إذ يتحول إلى كونه "حلا" ليحيد عن مسار التخطيط للخروج من الأزمة إلى مجرد مهارة كمهارة البقال الذي يملأ رفوفه بما تمليه متطلبات زبائنه و أهوائهم¹.

و عليه " فلا يجوز لأحد أن يضع الحلول و المناهج مغفلا مكان أمته و مركزها ، بل يجب عليه أن تتسجم أفكاره و عواطفه و أقواله و خطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته ، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب ، فإن في ذلك تضيقاً للجهد و مضاعفة للداء ، إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل و انتحار "²فهو يقتل لحظة إبداعه ، حين يفكر بوسيلة جاهزة لا دخل له في تركيبها .

لقد واجه المجتمع الإسلامي الأول الكثير من المشكلات التي إستفزت هويته و قدرته على الإبداع ، فحلها في كل مرة بطريقة واعية موفقة ، كاختيار طريقة الدعوة إلى الصلاة مثلا إذ كان من الممكن أن يحل مشكلته و يقتبس صوت الأجراس للنداء للصلاة ، كالمجتمع المسيحي لكن النبي - صلى الله عليه و سلم - و صحابته اختاروا طريقة أصلية في النداء هي صوت الإنسان فنشأت بذلك وظيفة المؤذن ، و تحاشوا مشكلة إستيراد الأجراس ، التي لم تكن تصنع في مكة أو المدينة ، بل لم يكن ممكنا صنعها .

¹ - انظر : مالك بن نبي : من أجل التغيير ، ص33.

² - مالك بن نبي : بين الرشاد و النية ، ص 70 .

فإن كان المجتمع الإسلامي قد اقتبس " الحاجة " من مجتمع آخر متحضر و هي الدعوة إلى الصلاة ، فإنه أبدع في الوسيلة " التي تتلاءم و وضعه ، و قس على ذلك الكثير من العادات .

إن الشيء المستعار يدخل بصورة طبيعية إلى الحياة الإسلامية ، فيندمج فيها و يتلون بألوانها لأنه يحقق غاياتها و يتفق مع إمكانياتها¹.

أما إذا استوردت المعارف كما هي دون إخضاعها لعامل المحيط الملائم ظلت غريبة نشازا ، تماما كما فشل مشروع الخبير الألماني شاخت الذي أخرج ألمانيا من أزمتها من خلال نجاح مخططه الاقتصادي لسنوات 1933 إلى 1939 .

• قوة الفكرة الدينية بين الانتساب و الالتزام:

يرتبط ميلاد الحضارة ، في فكر مالك بن نبي ، بميلاد فكرة توحيد المجتمع و تقوي صلاته و تنظم فكر الإنسان و توجه طاقاته نحو غايات أخروية سامية أسماها "الفكرة الدينية " ، فالمجتمع بحاجة إلى عقيدة تنظم علاقاته و تمدّه بالقيم الأخلاقية و تمنح أفراد المجتمع الواحد الشعور المشترك بحاجة أحدهم إلى الآخر للنهوض بالأمة .

إذ يرى مالك أن الحضارة - خاصة في مراحلها الأولى - تحتاج إلى قوة روحية تكون أساس أي تجديد كما الأمر في الحضارة الإسلامية ، المسيحية و البوذية " و الدين وحده هو الذي

¹ - انظر : مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ص71.

يمنح الإنسان هذه القوة ، فقد أمد بها أولئك الحفاة العراة من بدو الصحراء الذين اتبعوا هدي

محمد - صلى الله عليه و سلم - ¹

فكانت دفعة روحانية غيرت داخلهم ، فتحول من خلالها إنسان الصحراء إلى

ظاهرة عجائبية أذهلت العالم ، فاخترى العقل أمام تبرير صناعة هؤلاء الرجال من

أمثال "عقبة بن نافع" فاتح شمال إفريقيا الذي وقف يودع أبناءه الوداع الأخير

داعيا الله " اللهم تقبل عملي و اجعلني في عبادك الصالحين " .

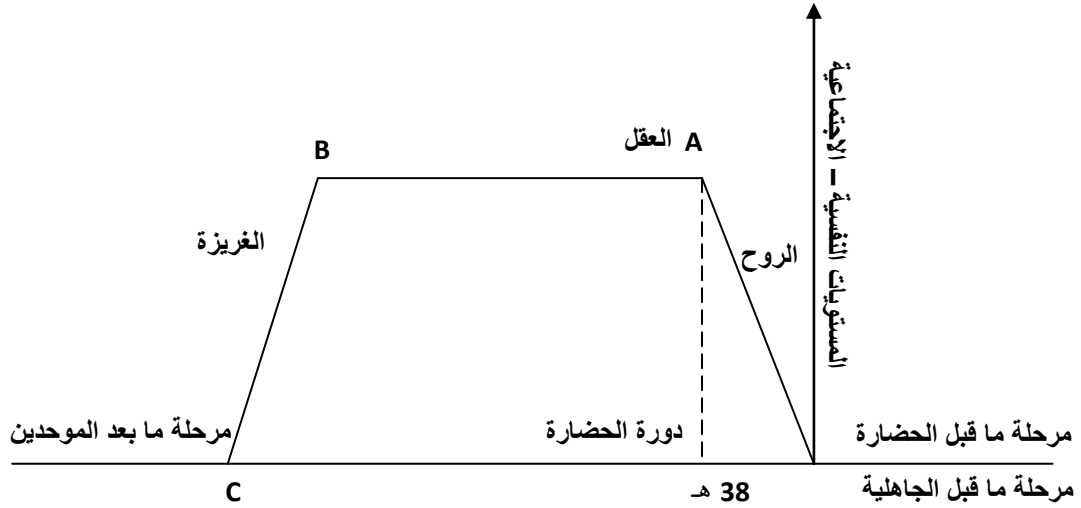
و عمر بن عبد العزيز ، الذي أثر أن يتنازل عن الخلافة لأنه من الظلم أن يتولى

أمرا يخص نسل علي - كرم الله وجهه.

و الإمام مالك الذي تعرض للجلد في الأماكن العامة ، لأنه دافع سلطانا باغيا ².

¹ - مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص66.

² - انظر : مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ص26.



الحضارة الإسلامية 2¹

الدين قوة وراء كل المنجزات البشرية ، لهذا انتقد بن نبي نظرية " توينبي " في التحدي و الاستجابة ² لأنها و إن فسرت قيام بعض الحضارات ، فشلت في تفسير قيام بعضها الآخر ، كما انتقد ما ذهب إليه " ماركس " و مدرسته المادية التاريخية ³ ، فبعض الحضارات لم تقم على أساس العامل المادي كالحضارة الإسلامية كما انتقد دعاة التفوق العرقي في قيام الحضارات على أساس العرق ⁴.

إن الفكرة الدينية عند ابن نبي هي نسق من الأفكار الغيبية لا يقصرها على الدين السماوي فحسب بل هي قانون يحكم فكرة الإنسان و يوجه بصره نحو أفق أوسع .

¹ - انظر مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص44.

² - يفسر توينبي نشوء الحضارات من خلال نظريته " التحدي و الاستجابة " التي استقاها من علم النفس السلوكي ، حيث يرى أن الفرد الذي يتعرض لصدمة قد يفقد توازنه لفترة ، ثم قد يستجيب بطريقتين : 1- إستجابة سلبية : النكوص إلى الماضي لإستعادة و التمسك به تعويضا عن واقع مرفوض ، 2- إستجابة إيجابية : تقبل الصدمة و محاولة التغلب عليها .

³ - مدرسة أسسها ماركس على الفكر الإقتصادي الإشتراكي.

⁴ - Library.islamweb.net

و لكن لنا أن نسائل مالك بن نبي ، كيف لنا أن نعيد للفكرة الدينية إشراقها

و وهجها ، لنشعل من جديد فتيل النهضة داخل الفرد المسلم ؟

يرى مالك بن نبي أن تأثير الفكرة الدينية واضح عند توينبي¹ ، و عند لترشوبرت walte-

shubart في كتابه "أوروبا و روح الشرق" و كذا الفيلسوف الألماني هرمان دي كيسر لينغ

hermann-key serling (1880-1946 م) في كتابه "البحث التحليلي لأوروبا" حيث

يقرر أن ميلاد الحضارة المسيحية بدأ بظهور روح الأخلاق المسيحية ، و حتى الفيلسوف

الفرنسي غوستاف لوبون² gustave lebon (1841-1931 م) على الرغم من اعتباره أن

الدين و هما ، إلا أنه يعترف أن المبدأ الديني أقوى عنصر قد يوجه و يبني حياة الأمم لأن

الدين روح جامعة تسير بالأمة نحو العظمة ، كما أدرج مالك رأي المؤرخ (هنري بيرين)

الذي لاحظ الارتباط القوي بين الدين و ظهور الحضارة في كتابه "محمد وشارلمان"³

خلص مالك بن نبي إلى أن الإسلام هو جوهر قيام أعظم حضارة لكنه لم يدس رأسه في الرمل حيث

أوضح أن الهوية تبقى عميقة بين مبادئ الفكر الإسلامي و واقع المجتمع الإسلامي " فالإسلام احتفظ

بمضائه الذي صيغت به الحضارة الإسلامية كدرة فريدة في التاريخ و لكن المسلم هو الذي فقد

استخدامه الاجتماعي "⁴ فأصبح مسلما في شهادة الميلاد فقط ، سلبيا لا يتفاعل في مجتمعه بحقيقة

إسلامه ، فظهر التناقض بين الإسلام كحقيقة ناصعة و بين واقع المسلمين الذي انشطر إلى قسمين

¹ - الذي يرى أن للعقائد الدينية دورا في مجريات التاريخ ، فكانت البوذية سببا في ظهور حضارة الشرق الأقصى ، و للعقيدة الهندوكية دور في ميلاد حضارة الهند ، و العقيدة المسيحية سبب حضارة الغرب ، كما كان الإسلام مصدر الحضارات العربية و الإيرانية .

² إذ ركز لوبون في دراسته على دور المبادئ و الأخلاق في بناء الحضارة ، و من أكثر المبادئ تأثيرا هي المبادئ الدينية . زار لوبون بين عامي 1882-1884 م كل من المغرب و الجزائر و تونس و مصر و لبنان و سوريا و بغداد و تركيا ، متتبعا ما بقي من الحضارة الإسلامية فهو صاحب مقولة " أن العرب هم الذين علموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين".

³ - انظر : مالك بن نبي : 62/60 .

⁴ - مالك بن نبي : فكرة الأفريقية الآسيوية ، ص 238 .

قسم يدعو لتمثيل و تقليد الفنون و العلوم الغربية و آخر يحاول التغلب على مركب النقص بإعادة الاعتراز بمجد الماضي¹.

من منظور مالك بن نبي ، لم يتخل إنسان ما بعد الموحدين عن عقيدته ، لكن عقيدته هي من فقدت فعاليتها ، فانفصل الفكر عن العمل ، فبعد أن كان الإسلام ينظم تفاصيل الحياة اليومية للفرد ، انحصر مفهومه بين جدران المساجد و أصبح المسلم "يعتقد أنه بتأديته الصلوات الخمس قد بلغ دروة الكمال ، دون أن يحاول تعديل سلوكه و إصلاح نفسه ، فهو كامل كمال العقم ، أو كمال الموت أو العدم"²

إذن فكما كانت الروح سببا في قيام الحضارة ، كان خبوها سببا في موت الحضارة و اندثارها .

و في سؤال وجه لإبن نبي في أحد مجالس دمشق ، حيث بادرت إحدى الحاضرات باستفسارها عن كيفية البدء بدورة حضارية جديدة في ضوء هو التراجع في القيم الأخلاقية و الدينية ، يجيبها مالك بن نبي بقوله "نبدأ ككل شيء في كل القضايا ، فكيف بدأ رسول الله - صلى الله عليه و سلم - ؟ ، لقد بدأ بفكرة صحيحة عاشها ، طبقها ، تكبد من أجلها العذاب حتى لو قتلوه . أو كما قال لعمه لما عرضت عليه قریش عروضها المغرية "والله لو وضعوا الشمس في

¹ - انظر : مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث ، دار الإرشاد ، بيروت ، 1969 ص14.

² - مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ص77.

يميني و القمر في شمالي لما تركت هذا الأمر حتى أبلغه أو أهلك دونه " كيف نبدأ ؟ هكذا نبدأ " ¹.

• من الفوضى إلى التوجيه :

بعد أقول نجم الحضارة الإسلامية نتيجة سيطرة الغرائز على حياة المجتمع المسلم أو ما يسميه مالك بمجتمع ما بعد الموحدين ، تراجعت فعالية الفرد ، و دخل من جديد في فوضى الحياة البدائية ، و حتى في محاولاته المتعثرة للنهوض من جديد خارت قواه و مني بالإخفاق ، لأنه لم يتخذ من الحضارة غاية و هدفا له يسعى إليه بتجديد طاقاته ضمن مجتمع متكامل متناسق ، بل راح يكوم ما أنتجته الحضارات الأخرى . كما أدى ابتعاده عن الدين ظهور الكثير من المشكلات التي أثرت سلبا على الحياة الاجتماعية ، الاقتصادية

و الثقافية للأفراد ، و تعذر حلها لأننا " درجنا على أن ننظر إليها وفقا لعاداتنا الفكرية ، وليس وفقا لطبيعة تلك القضايا و ما تستدعيه من حلول . و بالإضافة إلى أننا نفتقد وسائل الرقابة الذاتية ، فإننا نفتقد أيضا المقاييس اللازمة لمعرفة نتائج تحركنا بدقة . فلقد رأينا مثلا أن مشكلة الجهل التي يعاني منها المجتمع المسلم تحل بواسطة العلم . لكن هذا التصور قد خرج لنا نوعين من المتعلمين الأول لا ينفع مجتمعه ، و الثاني يضر بعلمه ذلك أننا أهملنا الأساس الخلقي و النفسي في العملية التعليمية فلم ننتبه إليه و لم نضمنه مشروع نهضتنا " ففقدنا "القدرة" و لم يعد من الممكن سوى أن نستورد أفكار " الآخر " ، فبدل أن نبني

¹ - مالك بن نبي ، مجالس دمشق ، ص63.

حضارة ، دخلنا في مرحلة ترقيعية لا جدوى منها ، جرتنا إلى فوضى غير مبررة " هذه الفوضى المكونة من عناصر لم تهضم أم تتمثل ، تنفجر في صورة تنافر عنيف ، يمكننا ملاحظته حيث نتأمل مثلا مظهر العبادة و الجلباب القديم بجانب سيارة حديثة ، و هذا النشاط يصبح أعجوبة حين نرى رجلا من الطراز القديم ، ذا عمامة كبيرة يعب من خسر معتقه على منضدة 'إحدى الخمارات' ¹.

لهذا كان لابد من فكرة التوجيه التي يعرفها مالك بن نبي أنها " قوة في الأساس و توافق في السير و وحدة في الهدف ، فكم من طاقات و قوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها " ².

لكي نخرج من نفق الفوضى و التوهان التي يعيشها الفرد المسلم ، لابد من توجيهه و ذلك بتنظيم الجهد و الوقت دون إسراف " فهناك ملايين السواعد العاملة و العقول المفكرة في البلاد الإسلامية ، صالحة لأن تستخدم في كل وقت و المهم هو ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد و العقول ، في أحسن ظروفه الزمنية و الإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائها " ³ و لهذا الغرض يقترح مالك بن نبي توجيه الإنسان المسلم في ثقافته من خلال توجيه أخلاقه ، ذوقه ، فعاليته و علمه ، لأنه بدوره يؤثر في محيطه الاجتماعي بنفس هذه الآليات .

¹ - مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ص 70 .

² - مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 84 .

³ - مالك بن نبي : نفس المصدر ، ص 84.

توجيه الثقافة :

يؤسس مالك بن نبي لمفهومه الثقافة على أنها نظرية في المعرفة ، و يضرب لتوضيح ذلك ، مثلا بالطبيب الإنجليزي و الراعي الإنجليزي ، فإن كان أحدهما يختلف عن الآخر في الوظيفة و المستوى الاجتماعي ، إلا أن سلوكهما إزاء مشكلات الحياة يتميز بتمائل معين في الرأي في حين لو تصورنا طبيبا أو راعيا في مجتمع آخر مختلف في درجة التفكير و التقدم ، سيختلف سلوكهما إختلافا كبيرا يدل على طابع الثقافة الذي يميز أحد الرجلين عن صاحبه ، لأنه يميز المجتمع الذي ينتميان إليه ، و عليه فالتمائل أو الاختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لا عن العلم¹. لهذا كان دور الثقافة هاما و مؤثرا باعتبارها الدم الذي يغذي حضارة المجتمع ، فوجب توجيه عناصرها الأربعة المتمثلة في :

أ -التوجه الأخلاقي : يتمحور حول إمكانية إنتاج المجتمع قيمه الخلقية الكفيلة بدفعه

باتجاه غايته ضمن رابطة دينية ،يستمد منها مبادئه و استمراريته لأن "المجتمع لا

ينتج تلقائيا القيمة الخلقية ، إنما التركيب بين العناصر و تقوية العلاقات ، إنما يتم

بحدوث حادث غير عادي كظهور الديانات²

¹ - انظر مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 89

² - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ، ص 48.

ب التوجيه الجمالي : يرتبط الذوق الجمالي بالمبدأ الأخلاقي ارتباطاً وثيقاً

في فحين يكون المبدأ الأخلاقي ضرورياً للعمل من حيث دوافعه و غاياته

يكون العنصر الجمالي لازماً لصورته و فعاليته .¹

فإن أي محاولة لبناء حضاري لا بد أن يترافق فيها ترقية الذوق الجمالي

و تأسيساً لدستور أخلاقي تبعاً لمعادلة :

- مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = توجه حضاري .

إن الذوق الجمالي ليس صفة فطرية إنما سلوك إجتماعي عام يعكس ثقافة

محيط ما ، و يضرب مالك بن نبي مثالا لذلك ، الأوامر التي أصدرها عمدة

موسكو و نقلتها الصحافة بتاريخ 03/08/1957 م و التي تلزم سكانها بأن

يراعوا نظافة مدينتهم ، و التفريط في ذلك يعرضهم لغرامة مالية تبدأ من خمسة

و عشرين روبلا إلا مئة روبل . فلو أننا سألنا عمدة موسكو عن السبب الذي دعا

لمثل هذه الإجراءات لأجابتنا بأنه النظام ، و يجيب طبيب من وجهة نظره بأنه

الصحة وثالث فنان يذهب إلى أنه جمال المدينة².

فالجمال هو الذوق الرفيع ، و الصحة ، و النظام ، هو كل لا يتجزأ و يجب أن

نراه في أنفسنا و بيوتنا و شوارعنا ، و حتى فيما نقرأ أو نسمع ...

ج - المنطق العلمي : يعاني المجتمع المسلم - حسب مالك بن نبي - من عقم

إجتماعي ، مرده إلى أن هذا المجتمع لا يعيش طبقاً لمبادئ القرآن و إنما يتكلم

¹ - مالك بن نبي : تأملات ، ص 146.

² - انظر : مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 100

تبعاً لمبادئ القرآن ، و البون شاسع بين الحدين ، فالمسلم من منظور بن نبي لا ينقصه منطق الفكرة ، إنما ما يفتقده هو منطق العمل و الحركة .

وللخروج عن حدود هذه الدائرة الضيقة يدعو مالك بن نبي إلى تمثّل مبادئ العقيدة الإسلامية التي قدست التفاني في العمل و إتقانه ، و عدم تأخيرها ، فالعقل المجرد متوفر في البلاد الإسلامية ، إنما ما ينقص هو العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة و الانتباه¹ .

د - التوجيه الصناعي : لا يقصد مالك بن نبي المعنى اللفظي للصناعة ، فإن

كل الفنون و المهن و القدرات و تطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة ، بل حتى رعي الأغنام ، لهذا وجب الاهتمام بكل المهن مع اختلاف مستوياتها و درجاتها ، بإنشاء مجلس للتوجيه الفني ، يرتب أهميتها تبعاً لحاجات البلاد فإن كانت الصناعة وسيلة للفرد لكسب عيشه ، فإنها وسيلة المجتمع للمحافظة على كيانها و استمرار نموه² .

• مسار الأفكار من السكون إلى الفعالية :

يقول ماوتسي تونغ "إن أفضل دليل على سلامة أفكارنا هو نجاحها في الإطار الاقتصادي " . فالفعالية هي تحول الأفكار من نطاقها النظري إلى التطبيق على أرض الواقع ، إذ لا يكفي في عرف مالك بن نبي أن نحتفل بقدسية القيم و اكتساب الحقوق ، و لكن لابد من أن نفعل أفكارنا لتدب فيها الحياة ، لأن

¹ - لظر : مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 102 .

² - انظر : مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 104 .

القضية ليست مسألة وسائل إنما مناهج ملائمة و أفكار واقعية ، لقد أقلعت دول

مثل ألمانيا و اليابان و الصين بإمكانيات متواضعة و استطاعت اللحاق بالركب

الحضاري في نفس الوقت ، في حين فشل مخطط "شاخت" - shacht¹ للإقلاع

باقتصاد أندونيسيا مع توفر الموارد الطبيعية و البشرية ، كما لم ينجح مؤتمر

"باندونغ" ² للنهوض بإقتصاد آسيا و أفريقيا لأنه لم يستفد من تجارب الماضي

و من الأفكار الجديدة لبلورة وجهة جديدة للإقتصاد الأفريقي الآسيوي .

يتفاعل - إن صح التعبير - مالك بن نبي ، بحالة الإنسداد الاقتصادي

و الاجتماعي التي يعيشها المجتمع الإسلامي لأنها وحدها قادرة على تقجير

طاقات الفرد المسلم و توجيهها نحو الفعالية و النفع ، فهو يرى أن المجتمعات

التي تمر بحالة من الركود و الكساد يعيش أفرادها حالة من الاستقرار و اللامبالاة

دون بدل أي مجهود لتغيير الوضع من حولهم إلى أن تحدث حالة جديدة في

المجتمع تضطربهم أن يتغيروا أمام هذه الحوادث و بالتالي يتغير مجرى التاريخ

كما تغير مع بني إسرائيل حيث واجهوا اليم ، ومع شعب ألمانيا بعد الحرب

العالمية الأولى.

¹ - يالمار شاخت (1877-1970 م) خبير اقتصادي ألماني ، تولى وزارة الإقتصاد ببلده ما بين 1937 إلى 1943 اكتسب شاخت شهرة عالمية بإسهامه في قف التضخم النقدي المدر الذي هدد ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى كما أعطى استشارات في الإقتصاد و المالية لرؤساء الدول النامية خصوصا أندونيسيا و الفلبين .

² - عقد مؤتمر باندونغ في مدينة باندونغ الأندونيسية عام 1955 ، شارك فيه الرئيس عبد الناصر ، رئيس وزراء الهند نه رو رئيس يوغسلافيا تيتو ، و الرئيس السوداني إسماعيل الأزه اري ، تبنى المؤتمر مجموعة من القرارات لصالح القضايا العربية و ضد الإستعمار .

توسعت دائرة الاهتمام بفكر مالك بن نبي لكونه يتضمن الإجابات الجوهرية لأهم معضلات ومشاكل الحضارة، كما أثبتت الدراسات المنجزة صدق تنبؤاته في الكثير من قضايا التنمية والإصلاح الحضاري، في ظلّ فشل الكثير من الأطروحات النهضوية المستوردة. كما أنّ سلوك تعامل المسلم مع غيره من القضايا الهامة التي يحث فيها مالك بن نبي واستهدف من خلالها استعادة الفرد المسلم ثقته بنفسه وبقدراته، وتحرير ذاته من قابلية الدّل والتبعية بعد أن تعمق في دراسة:

- سيكولوجية "الآخر" مقوماته الثقافية، الاقتصادية والاجتماعية وكذا ميوله التوسعية؛

- نقائص "الأنا" التي تقف عائقاً أمام تطوره و نموه؛

- إمكانية الإقلاع الحضاري ودخول العالم الإسلامي في دورة حضارية جديدة من خلال مشاريع أسس لها بن نبي بطرق علمية دقيقة.

إنّ إقامة حضارة -حسب بن نبي- لن تكون بمعزل عن الآخر بل هي

امتداد إلى ما توصل إليه. فطريقة التعاطي مع هذا الميراث هي لب البحث والنواة التي تفرعت عنها فصوله. إذ يمتلك بن نبي كل المقومات التي تجعله أنموذجاً لمثل هذه الدراسة وكيف لا وقد تتلمذ منذ شبابه على أفكار الغرب، وحين سافر إلى فرنسا تعمق في فهم الحضارة الغربية

و استيعاب خصائصها الثقافية وجذورها المعرفية، وأبدى إعجابه بكثير

من الأمور الإيجابية، فتميزت معالجته لإشكالية "الأنا" و "الآخر" ضمن أطروحاته الفكرية بالموضوعية، فهو لم يقلد أحداً، فكان معتزلاً بـ "أنه" متشبهاً بثوابتها، منتقداً لجذرائها، فهو لا ينفي عنها تهاونها في المشاركة في البناء الحضاري وتخاذلها في الإمساك بزمام أمورها وفي الوقت نفسه نجده لا يحمل أيّ ضغينة نحو الآخر، رغم معاشته

للاستعمار وويلاته ومحاولاته المستمرة من أجل عرقلة نهضة العالم الإسلامي، فيرى بأسلوبه المحايد في كتابه "شروط النهضة" أنّ الاستعمار قد سلبنا الكثير من الأشياء الثمينة، وأنّه أخذ حريتنا وسيادتنا وكرامتنا، غير أنّه يجب أن نعترف له، أنّه كان أشبه بالسقوط الذي أيقظ شعوبنا.

وبعد تتبع ثنائية "الأنا" و "الآخر" في حياة وكتابات مالك بن نبي يمكننا الخروج بجملّة من النتائج هي:

- 1 - بحث مالك بن نبي وأبدع في تحليل أهمّ القضايا المحورية في العالم الإسلامي كانهضة، الحضارة، الثقافة، وأساليب التغيير، كما اهتم بشدة بدراسة مشكلات الأمة الإسلامية الحضارية وتحديد أهم عناصر الإصلاح. ممّا يؤهله لأن يكون مرجعاً هاماً في هذا المجال.
- 2 - أولى الإنسان المسلم أهمية قصوى، فتتبع مواطن الضعف عنده وتفتّن إلى أهم مشكلاته الاجتماعية، ليقتراح بعدها سبل الخلاص ضمن رؤية مستقبلية متفائلة. كما اشترط لقيام الإنسان المسلم بنهضة شاملة وجوب:
 - معرفة نفسه ليتمكن من تطهيرها من كل أنواع التخلف؛
 - معرفة الآخر دون تعال أو تكبر؛
 - تقديم نفسه للآخرين وتعريفهم بها في صورة محبّة، خالية من كل روااسب القابلية للاستعمار والتخلف.
- 3 - تميز منهج بن نبي في بحثه عن حلول لأهم مشاكل العالم الإسلامي، استثمار ثلّة من العلوم التي ساعدت في بناء منظوره الحضاري وتحديد المشكل بأسلوب علمي منطقي دقيق، مثل علم النفس التاريخ وعلم الاجتماع.

- 4 - يعتبر مالك بن نبي من أهمّ المفكرين الذين بحثوا في سيكولوجية الاستعمار وأساليبه الخطيرة في إخضاع وإذلال الشعوب المستضعفة وهو لا يعتقد ظاهرة منقرضة، بل ظاهرة متجددة طالما بقيت هذه الشعوب تابعة في اقتصادها وثقافتها للآخر.
- 5 - لم يخرج بن نبي في حديثه عن "الآخر" عن حدود الأدب و الاحترام، فهو لا يحمله -كلية- تبعات تخلف الإنسان المسلم أو تقهقر حضارته، وهو لا يدعو إلى رفضه أو مقاطعته بل يدعو المسلم إلى الاستفادة من نقائص وفضائل الحضارة الغربية باعتبارها حضارة عالمية سادت نظرياتها ومفاهيمها في شتى مجالات العلم و المعرفة.
- 6 - دعوة مالك بن نبي إلى فكرة التعايش السلمي مع الحضارات الأخرى، على أن يكون التعامل على مستوى الندية، التي يقع عبء تحقيقها على الفرد المسلم أولاً بتخليه عن تبعيته للآخر وإثبات ذاته ثقافيا واقتصاديا و سياسيا، ... وتكثله ضمن اتحاد عالمي دعاه مالك بـ "كمنولث إسلامي" يسيّره خبراء عالميون بطبيعته مشكلات العالم الإسلامي وأساليب علاجها.
- 7 - يمتلك بن نبي منهجاً متكاملاً في النهضة و التغيير، غير أنّ الوتيرة السريعة التي تغير بها المجتمع الإسلامي من يوم وفاته إلى اليوم، تستدعي مراجعات نقدية وإضافات عملية من خلال إعادة قراءة فكر بن نبي.

قائمة المراجع:

أ. الكتب:

1. عبد العزيز الوصي، أسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952، ط4.
2. مصطفى سريف، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة دار المعارف، القاهرة، 1981، ط4.
3. محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيل، صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ط1.
4. عمرو عبد العالي علام، الأنا و الآخر الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة.
5. عبد الله بو قرن، الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، كلية العلوم الاقتصادية، 2006/2007.
6. عبد القادر طاش، صورة الإسلام في الإعلام الغربي، الزهراء للإعلام الغربي، القاهرة، 1993، ط2.
7. ناجية أفجوج، الصورة النمطية للإسلام في المتخيل الغربي سوء فهم أم مركب جهل، مطبعة أنفو-برانت، المغرب، 2009.
8. صابر طعيمة، الإسلام والآخر، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2007.

9. يوسف رشاد، اليهود المتخفون وأثرهم في المسيحية والإسلام قديما وحديثا، دار الكتاب العربي، دمشق، 2010.
10. صلاح عبد الفتاح الخالدي، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، تاريخ وسمات ومصير، دار القلم، دمشق.
11. رقية العلواني وآخرون، مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، دار الفكر، دمشق، 2008.
12. مولاي الخليفة لمشيبي، مالك بن نبي، دراسة استقرائية مقارنة، دار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2012.
13. فوزية بريون، مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة، دار الفكر، دمشق، 2010.
14. عمر مسقاوي، في صحبة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 2013.
15. يوسف بوراس، الفكر السياسي عند مالك بن نبي، دار هومة، الجزائر، 2013.
16. يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
17. محمد العربي الزبيري، الغزو الثقافي في الجزائر (1962-1982)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1986.
18. رشيد الإدريسي، من ضرورة تجاوز إنسان ما بعد الموحدين إلى ضرورة تحديث العقل العربي، مالك بن نبي، العائد، جمع وتقديم نور الدين خندوري، وزارة الثقافة، الجزائر، 2008.

19. شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991.
20. حسن شحاتة، الذات والآخر في الشرق والغرب، صورة ودلالات وإشكاليات، دار العلم العربي، مصر، القاهرة، 2008.
21. محمد أركون وآخرون، الإستشراق بين دعائه ومعارضيه، دار الساقى، بيروت، لبنان، 2000، ط2.
22. بودبوز عبد الغني، الجذور الاجتماعية والديمقراطية، دار قرطبة، 2009.
23. صامويل هنتجتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعات الشايب، تقديم صلاح قنصورة، روكفلرسانتر، نيويورك، 1999، ط2.
24. اسولداشبينقفلر، تدهور الحضارة العربية، ترجمة أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1964.
25. عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي، حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2012، (رسالة ماجستير).
26. سعيد جودت، حتى يغيروا ما بأنفسهم، مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري، دمشق، 1989، ط8.
27. جاسم محمد سلطان، النهضة من الصحوة إلى اليقظة، استراتيجية الإدراك للحراك، أم القرى للترجمة والتوزيع، مصر، 2012، ط4.
28. مولاي خليفة لمشيش، مالك بن نبي، دراسة استقرائية مقارنة، معالم المنهج في تأصيل العلوم الإنسانية والنشر والتوزيع، دمشق، 2012.

29. عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، الأمة قطر، العدد

152 ذو القعدة 1433.

30. محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن دار الفكر، دمشق، 2007.

31. جيلالي بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، الجزائر،

2010.

32. الطيب برغوث، منهج النبي صلى الله عليه وسلم - حماية الدعوة

والمحافظة على منجزاتها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي الولايات المتحدة

الأمريكية، 1996.

قائمة المصادر و المراجع:

قائمة المصادر:

- القرآن الكريم

- مالك بن نبي:

1. مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، 1984، ط4.
2. العفن، تقديم أحمد بن نعمان، تصدير بقلم عبد الرحمان بن عمارة، ترجمة نور الدين خنودي، دار الأمة، الجزائر، 2007.
3. بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، دمشق، 2002، ط2.
4. الفكر الأفريقية و الآسيوية، في ضوء مؤتمر باندونج، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر، دمشق 2006، ط2.
5. مالك بن نبي، في مهبط المعركة، دار الفكر، دمشق 1991، ط4.
6. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 4، ترجمة: عبد الصبور شاهين دار الفكر، دمشق، 1981.
7. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، 2006، ط6.
8. مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق 2005، ط5.
9. المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق 2002، ط3.
10. دار الفكر للطباعة والتوزيع و النشر، دمشق، سورية 2008، ط6.
11. من أجل التغيير، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2008.
12. الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، 2009، ط9.

13. آفاق جزائرية، مكتبة عمار القاهرة، 1971.
14. ميلاد مجتمع، أثر عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية
1986، ط3.
15. مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، بيروت 1970.
16. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، أثر: بسام بركة وأحمد
شعبو، دار الوعي، الجزائر، 2013.
17. عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و البربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، 2007.

المجلات:

1. بدران بن الحسن، معرفة الغرب في السياق الحضاري، قراءة في تراث مالك بن نبي، مقدمات في الإطار النظري وأهمية الغرب، البصائر، العدد 809، 29 ماي 2016.
2. جلال بوبكر، موقف الفكر المعاصر من الحضارة الغربية بين السلب والإيجاب، الموسوعة الإسلامية، عدد 2012/06/14.
3. الزهراء عاشور، حوار الحضارات وإشكالية الأنا و الآخر في الفكر العربي والإسلامي المعاصر، مركز آفاق للدراسات والبحوث، المملكة العربية السعودية، عدد 2012/01/03.
4. سلامة موسى، الثقافة والحضارة، مجلة الهلال، القاهرة، ديسمبر 1927.
5. سليمان السرقوسي بن أبي القاسم، منظومة بناء حضارة وعناصرها الثلاثة، مجلة البحوث الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد 21 من ربيع الأول إلى جمادى الثانية، 1408هـ.
6. مالك بن نبي، عشرون سنة من بعد، الثورة الأفريقية، عدد 220، ماي 1967.
7. مالك بن نبي، ثمن الوحدة العربية، الثورة الأفريقية، العدد 226، جويلية 1976.
8. محمد محفوظ، النظرية الثقافية عند مالك بن نبي صحيفة الرياض، العدد 14176، 7 أبريل 2007.

9. مولدي الساكري، حوار الحضارات، المبادئ والأهداف، مجلة آفاق،

الحضارة الإسلامية، إيران، عدد 2015/07/23.

10. عبد الناصر بن عيسى، ألا يستحق رجل مثل هذا العملاق التفاتة حقيقية،

جريدة الشروق اليومي، عدد 5 مارس 2013.

11. عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، كتاب الأمة، قطر،

العدد 152، ذو القعدة 1433هـ.

12. Langue et culture, révolution africaine n° 33/ 18 mai

1968.

القواميس و المعاجم:

1. أحمد مختار عمر، معجم المعاني الجامع، عالم الكتب، القاهرة، 2008.

2. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، 2010.

3. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، دار

الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1989.

4. المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار الشروق، بيروت، ط1، 2000.

الرسائل الجامعية:

1. عبد الله بو قرن، الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل -رسالة ماجستير-
جامعة منتوري، قسنطينة، كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية و الإنسانية،
2007/2006.
2. محمد وقيع الله أحمد، الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، عرض ونقد،
بحث مقدم لنيل جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، 2006.

المواقع الإلكترونية:

1. إياد عماري، الأنا و الآخر ودورهما في رسم العلاقة بين الوطن العربي
والغرب، خاص بموقع المنشاوي للدراسات والبحوث
2007
www.minshawi.com .
2. بوبكر جيلالي، موقع فكر مالك بن نبي في خطى الإصلاح وفلسفة التاريخ
www.almeshkat.net
3. عمر عبيد حسنة، معادلات الإقلاع الحضاري عند مالك بن نبي
www.library.islamweb.net/newlibrary
4. الطيب برغوث، الطريق إلى عالم مالك بن نبي الفكري
www.echouroukonline.com
5. صبري خليل، قضايا التعبير ومفهوم المفاضلة
Sabri.khalil@hotmail.com
6. عمر مسقاوي، مالك بن نبي، مفكر، شاهد، ومشروع متجدد
www.binabi.net

7. محمد حلمي عبد الوهاب، قراءة في كتاب "الإسلام والغرب ... الآن و

الآخر" جدالات التناحر والتقارب بين الإسلام والغرب، إسلام أونلاين.

8. www.inrabic.org/bible

9. Nourddinebouktouh :laconisabilité pensée de Malek Bennabi

10. www.jawdatsaid.net/index.php

11. <http://ar.wikipedia.org/wiki>

12. <http://drsabrikhalil.file.wordpress.com>

فهرس الأعلام

الاسم	الصفحة
حرف الألف	
الأب برجيس	82
أثينا	89
الإخوان المسلمون	15-14
أرسطو	21-19
أرنولد توينبي	117-105
اسبانيا	79-29
اسرائيل	142-49-33
أسبين بلاتيسوس	83-79
آسيا	115-78-72-71
أفغانستان	46
أفريقيا	115-78-72-71
ألمانيا	157-156-151-74-69-47
الأمير خالد	75
الأندلس	134-30-29
أوروبا	-86-85-83-80-62-37-31-22 157-145-137-135-120-91

134	إيطاليا
حرف الباء	
38	باريس
74	بسمارك
30	بغداد
79	بلاشير
18	بليز باسكال
144-10	ابن باديس
117-112-105-103	ابن خلدون
83	ابن الراوندي
91	ابن منظور
80	بوجو
38	ببير لوتي
حرف التاء	
79	توماس الإكويني
12	تونس
46	تيرانا
حرف الثاء	
31	الثورة الإيرانية

حرف الجيم	
79	جريردوريياك
-73-64-63-61-59-58-48-11 145-130-82-76-75-74	الجزائر
144-23	الجزيرة العربية
144	جمال الدين الأفغاني
15	جمال عبد الناصر
79	جولد تسيهر
حرف الحاء	
29	الحكم بن هشام
حرف الدال	
79	دو فوكو
83	دونيس بيبان
116	ديكارت
حرف الراء	
52	روجه غارودي
21	الرومان
حرف الزاي	
80	زيغريد هونكه

حرف السين	
79	س. مرجليوت
15	سيد قطب
11	سيلستين بول فيليبون
37	السيد مارتان
83	سيديبو
66-33-12	سوريا
حرف الشين	
157-156	شاخت
117-114-112-105	شبنجلر
29	اشبيلية
19	شولته
حرف الصاد	
31-21	صموئيل هنتجتون 2008-1927
49-35	الصهيونية
156-145-140	الصين
حرف العين	
29	عبد الرحمن الثالث
49	عبد الله الأول بن الحسين

العراق	33
عقبة بن نافع	148
عمر بن الخطاب	90-89
عمر بن عبد العزيز	148
عمر مسقاوي	12
حرف الغين	
غاليه	83
غوته	79
غوستاف كلم	103
غوستاف لويون	83
حرف الفاء	
فرنسا	-64-59-46-44-38-12-11-10 75-74-73
فلسطين	34
فيدال كاسترو	148
حرف القاف	
قرطبة	29
قسطنطينة	47
حرف النون	

134	نابليون
29	الناصر لدين الله
88	انجلترا
130	نور الدين بوكروح
حرف اللام	
18	لاند
33-12	لبنان
15-7-12	ليبيا
حرف الكاف	
79	كاره دوفو
38	كلود تلمونت
38	كلود فارير
157-70	الكويت
حرف الميم	
75	المارشال بيتان
75-48-47-46-44-43-42	ماسينيون
76	ماشويل
	منوني
65	ماوتسيتونغ

144	محمد عبده
98	مدام دي رمبوليه
37	مدرسة قسنطينة الثانوية
40	مدرسة الهندسة الميكانيكية بفرنسا
47	مرسيليا
157-134-12-11	مصر
115-88	معاوية بن أبي سفيان
49	الملك فاروق
15	مؤتمر باندونغ
116	موشي دايان
حرف الواو	
43-38	وحدة الشباب المسيحيين الفرنسيين
98	ولادة
76	وهران
70	الولايات المتحدة
حرف الياء	
35	اليهود
	يوحنا الدمشقي
145-137	اليابان

19	يونغ
134-22-21	اليونان
حرف الهاء	
22	هيجل

فهرس الآيات:

الآية	رقمها	السورة	وردت في الصفحة رقم
أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ	100	البقرة	27
لَنَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ۖ ذَٰلِكَ بَيِّنٌ مِنْهُمْ قِسْيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَتَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ	82	المائدة	28-27
وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكُمْ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۖ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۖ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ سُبْحَانَ عَمَّا يُشْرِكُونَ	31-30	التوبة	28
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُونَ مُخْتَلِفِينَ	118	هود	51
وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا	70	الإسراء	88
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۚ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا	59	النساء	89
لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ	256	البقرة	89

90	الملك	15	هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهَا تُشْجَرُونَ
91	الأنفال	57	فَإِذَا تَنَفَقْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ
129	المؤمنون	14-12	وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ
129	الأنفال	53	ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَآلِهَمْسِمِيعٌ عَلِيمٌ
130	الرعد	11	إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۖ
141	آل عمران	110	كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۚ
143	ق	15	أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْهَمُمْ فِئَابِ مِثْلِ خَلْقٍ جَدِيدٍ
143	الحجرات	9	وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ۚ
143	الأعراف	56	وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
143	النساء	129	وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا
150	آل عمران	110	كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۚ

الفهرس

تشكرات

إهداء

المقدمة

مدخل..... 13

الفصل الأول : الأنا و الآخر في فكر و حياة مالك بن النبي

إشكالية الأنا و الآخر..... 21

الآخر في الفكر الغربي..... 25

نظرة " الأنا " إلى الآخر في الفكر الإسلامي..... 30

الآخر في حياة بن نبي..... 39

مالك بن نبي، جدلية حوار الحضارات و التعايش السلمي بين الأمم. 54

الفصل الثاني : الأنا و الآخر في فكر مالك بن نبي مواقف و آراء

موقف مالك بن نبي من 60

الاستعمار و التكيف معه..... 60

القابلية للاستعمار Colonisabilité..... 67

الاستعمار الاقتصادي..... 73

الاستعمار الثقافي..... 78

موقف مالك بن نبي من الاستشراق : Orientalisons..... 84

92.....	موقف مالك بن نبي من الديمقراطية
99.....	نظرية الثقافة في فكر مالك بن نبي بين الهوية و الأزمة
107.....	المرأة في فكر مالك بن نبي

الفصل الثالث : الإقلاع الحضاري، مقومات ومعوقات

بين تجديد طاقات الأنا و تفوق الآخر

112.....	الحضارة في فكر مالك بن نبي
113.....	مفهوم الحضارة
118.....	عناصر الحضارة
122.....	دورة الحضارة
127.....	مشاكل الحضارة
129.....	مشكلة الإنسان
133	مشكلة التراب
134	مشكل الزمن
137.....	مصطلحات الإقلاع الحضاري في كتابات مالك بن نبي
155.....	المشروع الحضاري في فكر مالك بن نبي
158	من التكديس إلى البناء

163.....	من إستيراد الحلول إلى صنعها
165.....	قوة الفكرة الدينية بين الانتساب و الالتزام
170.....	من الفوضى إلى التوجه
172.....	توجيه الثقافة
174.....	مسار الأفكار من السكون إلى الفعالية
177.....	الخاتمة
181.....	قائمة المصادر و المراجع
202.....	الفهرس

الملخص

ظاهرة الأنا والآخر هي إفراز تاريخي طبيعي لنوعية العلاقات التاريخية التي ربطت بين المسلمين وغيرهم من الأمم والشعوب. ولقد حدد مالك بن نبي موقفه من الحضارة الغربية، وتوصل إلى خلاصة ذهبية مفادها؛ أن الآخر لا يمثل السبب الرئيسي في تقهقر الأنا وأنه لا يقف عائقا أمام دخولها في دورة حضارية جديدة، بل الأنا وحدها مسؤولة عن صناعة حضارتها بأدواتها الخاصة، عندما تتخلص من أسباب عجزها وعدم قدرتها على تشخيص وضعها الاجتماعي، الثقافي والاقتصادي تشخيصا دقيقا لتتمكن بعد ذلك من استغلال التراب في وقت معين وكيفه ويحوّله إلى زمن اجتماعي تستغل فيه الثانية، الدقيقة والساعة من أجل صناعة إنسان الحضارة المنشودة. وللخروج من هذه الأزمة أسس بن نبي بعض المبادئ الكفيلة بخلق الانسجام بين أفراد المجتمع الواحد وتوطيد الصلات الاجتماعية بينهم، وأهم هذه المبادئ: المبدأ الأخلاقي المبدأ الجمالي المبدأ العلمي التوجيه الفني أو الصناعي البحث عن حيثيات مواقف مالك بن نبي من قضية المرأة والتي قرأها من زاوية فكرية تختلف في الطرح والنقاش عما كان متداولاً تلك الفترة، فطرق بابا آخر قارن فيه بين المؤهلات الفكرية للمرأة المسلمة ونظيرتها الأوروبية، فكانا سيان في المعادلة الحضارية لهذا دعا بن نبي المرأة عموما والمتقفة خاصة إلى تجاوز النظريات التقدمية الحديثة التي لا تتناسب وطبيعة انتمائهما.

الكلمات المفتاحية :

الأنا والآخر؛ الفكر الغربي؛ مالك بن نبي؛ الحضارة الغربية؛ الاستشراق؛ الاستعمار؛ المؤهلات الفكرية؛ النظريات التقدمية؛ الأمة الإسلامية؛ المشروع الحضاري.

نوقشت يوم 23 نوفمبر 2020

بتقدير مشرف جدا